

الدكتور محمد سليمان شاهين

الناشر/
دار البلد الخرطوم ١٩٩٩

الدكتور محمد سليمان شاهين

خواطر طبيب بيطرى

دار البلد للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

دار البلد للصحافة
والطباعة والنشر والتوزيع
التصميم /آمال الرفاعى

مقدمة

عزيزي القارئ . .

مرت بي احداث كثيرة وأنا أزاول مهنتي أو أعيش حياتي . . . . وحيوانات مختلفة اعترضت طريقي . . فاذا رأيت وجها للشبه بين هذه الحيوانات وبين احد من الناس تعرفه أو مجموعة من الناس عاصرتها أوعشت معها أو سمعت عنها فلاتلمني فلست انا المسئول عن ذلك . . .

ستقرأ في هذا الكتاب عن خروف العيد وربما تذكرت أن هناك خرافا يمشون على اثنين ولم تضعهم الظروف القاسيه موضع خروفنا، وانما سعوا هم وبمحض ارادتهم ليكونوا خراف تسمين، وليعيشوا يومين حلوين وليكن بعد ذلك مايكون . . وربما انتبهت وأنت تقرأ نفس القصة أن هذه الخراف الآدمية ليس لها لحم تمنحه لموائد سادتها النهمين لأن لحومها منفرة اتفق الجميع أنها غير صالحة للاستهلاك - فاستعاضت هذه الخراف بمنح شرفها واقلامها وافكارها لسادتها نظير ثمن بخس دراهم معدودة سرعان ماتزول . . .

وسواء كان رأيك في النهاية مع هذا الكتاب أو ضده، وسواء رأيت فيه شيئا ذا قيمة أو أنه مجرد تخاريف فاني اشكرك في كلا الحالين . . وكفاني انك قرأته وانه طبع إبتسامة خفيفة على شفتيك، أو رسم تقطيبة تفكير على جبهتك، أو أشعرك بحزن لهذه المآسي التي تعيشها الأنسانية المعاصرة .

محمد سليمان شاهين

الاهداء

الى زوجـــتى وأطـفالى ، أهـدى هـذا الكتـاب .

محمد سليمان شاهين

بعداية الطريق

المكان : قرية من قرى الشمال ترقد مسترخية فى أحضان جبل ضخم وكأنها تحتمى به . وأما الجبل فكان يرتفع سامقا معتزا بنفسه مشرفا على القرية وعلى الحقول الخضراء التى تليها ويمد ببصره قليلا على غابة من النخيل تكاد تنوء بما تحمل من ثمرها المختلف الأشكال والألوان . ومن خلف هذه الغابة يجرى النيل الخالد مارا بالقرية وهو يختال فى سريانه فيعطيها الرونق ويمنحها الحياة .

الزمان : صباح يوم من صيف ١٩٥٣ . والشمس ترسل أشعتها متوهجة رغم أنها فى بداية شروقها كعادتها فى هذه المنطقة ، وقد اكتست الضفة الغربية رداء من اشعتها الذهبية ، كما عانقت رؤوس النخيل المرتفعة هذه الأشعة وكأنها تقبلها أو تتقبل قبلاتها بعد فراق دام الليل كله . وأما القرية ببيوتها السمراء وأبوابها الخشبية الضخمة التى تصر حين تفتح وتزعق حين تقفل ومسجدها المطلى بالجير الأبيض يظهر واضحا بين البيوت ، ومئذنته القصيرة البدينة انتصبت واقفة ، كانت القرية بكل ذلك لازالت هادئة فى ذلك الظل المنعش الذى يلقيه عليها الجبل ، وقد بدأ النشاط يدب فيها شيئا فشيئا لتستقبل اليوم الجديد .

الاشخاص : رجال القرية يخرج كل منهم من بيته يحمل على كتفه «طوريته» ومعدات زراعته ، يلبس كل منهم قميصا لايكاد يصل الى الركبة ، بكم قصير ينتهى عند المرفق . أكثرهم حفاة وقليل منهم يضع قدميه فى مراكيب مهترئة أحالت الأتربة والزمن لونها ، فصارت رمادية ولو أن طياتها لازالت

تحمل ذكرى بعيدة بأن لونها كان أحمر فى يوم من الأيام . ويتقابل الرجال وتبدأ التحيات والبسمات والصيحات المرحة . .

— كيف أصبحتم . . ؟

— الحمد لله . .

ولكن عثمان يضيف قائلا :

— اى نعم الحمد لله الذى لايحمد على مكروه سواه .

ويلتف الجميع حوله متسائلين عن هذا المكروه .

وكأنما كان عثمان يتوقع التفافهم وتساؤلهم وقد أعد للأمر عدته فانطلق يقول :—

— الم يذهب أحدكم الى السوق قريب ؟ الم ير بعينى رأسه ذلك السفور الفاضح بين نساء المدينة وهن يتجولن فى شوارعها يشترين من هذا ويفاصلن ذاك ؟ وقد تركن الخفر والحياء جانبا .

ثم يرتفع صوته وقد أخذه الحماس :—

— اليس لهاتيك النسوة آباء أو اخوة أو أزواج ؟ . والله إن الساعة قريبة وقد ظهرت علاماتها . والأغرب من هذا وذاك اولئك الشبان الذين لايعرف الواحد منهم ماذا يعمل ومن اين يكتسب رزقه وهم جلوس على المقاهى يبحلقون فى النساء ويتهامسون. . . و

ويسمع صوت خفيض يسأل :—

— الم يكن هذا ماتفعله حين كنت فى سنهم ؟

فيرتج على عثمان ويتلعثم لسانه ولايجد مايقول سوى :ـ

ـ عفا الله عما سلف . . عفا الله عما سلف .

وتنطلق الضحكات من كل مكان .

كان بين هذا الجمع شاب صغير ، قصير القامة ، يميل الى البدانة لايكاد يختلف عنهم ، فهو يلبس القميص القصير مثلهم ، وقدماه حافيتان مثلهم ويحمل « طورية ؟ » على كتفه كأنه واحد منهم ولكن الناظر المدقق يرى جيب قميصه منتفخا ، لأنه تعود أن يحشر فيه كتابا لقراءته عندما يهجع الجميع الى ظل النخيل فى القيلولة . وظهر بوضوع أن يده الممسكة «بالطورية» تنقصها تلك الخشونة التى تمتاز بها أيديهم . وقد وضع نظارة طبية على أنفه .

إنه شاب من نفس القرية ، ولكنهم لايخاطبونه إلابعد أن يضيفوا الى اسمه كلمة افندى ، فهو فى نهاية المرحلة الثانوية ويقضى الآن آخر اجازة له فى هذه المرحلة وينتقل بعدها فى نهاية العام للمرحلة الجامعية .

لايكاد الرجال يصلون الى القنطرة المصنوعة من جذوع النخيل ، الممدودة على الترعة الصغيرة التى تشق قريتهم فاصلة المزارع عن البيوت ، حتى يلحق بهم عم ادريس وهو يسرع فى مشيته على غير عادته ويقبل عليهم يحييهم واحدا واحدا . ويبدأ احدهم فى القاء نكتة ولكن الجدية التى يراها على وجه عم أدريس تسكته .

ويتكلم أدريس وهو يقول : إن بقرته وشيكة الولادة ، وهو يريد أن يهئ حظيرتها استعدادا لليوم السعيد . وتبدأ مناقشة قصيرة عن العلامات التى لاحظها أدريس فى بقرته ودلالة ذلك ، وتنتهى المناقشة بأن يهنئه كل واحد

منهم مشدين على يده وداعين للبقرة بالسلامة . ولو اتفق أن حضر فى تلك اللحظة احد لايعرف هؤلاء القوم الطيبين البسطاء لظن أن زوجة الرجل هى التى ستضع وليست بقرته ! .

ومن ثم يتوجه الجميع الى الحظيرة حيث يحتفظ أدريس ببقرته وحماره الوحيدين . لم يتخلف واحد من الجماعة ولم يعتذر أحدهم حتى أولئك الذين كانوا قد سبقوهم فى الخروج من البيوت وبدأوا أعمالهم بحقولهم ، ماكاد يقع نظرهم على الجمع متجها الى حظيرة أدريس إلاوترك كل منهم ماكان بيده وهرع ليلحق بهم ، حتى اجتمع كل رجال القرية إلامن كان منهم مريضا أو على سفر ،من أولئك النفر القليل الذين توجهوا ذلك الصباح الى المدينة ليبيعوا خضارهم ويشتروا مايحتاجون اليه من سوقها .

أجتمع الرجال حول البقرة وأخذوا يتفحصونها بعيونهم ، ثم تقدم احدهم وهو معروف بحصافة الرأى والدراية بمثل هذه الأمور حتى لقب . . « ببصير القرية » . . ليعلن أن البقرة ستلد خلال الأسبوع على أكثر تقدير ويهلل الجميع ويرددون .

ــ ماشاء الله . . ماشاء الله .

ويتقدم البصير ويقوم بمسح سريع للأرض حوله ثم يقع اختياره على قطعة مرتفعة بعض الشئ ويبدأ فى تخطيطها ساحبا إحدى قدميه على الأرض ، حتى رسم عدة مربعات وانتحى جانبا وهو يوضح .

ــ هنا سيكون مخزن العلف وهنا سيربط العجل الصغير وفى هذه الحجرة ستكون البقرة بعد الولادة لتكون قريبة من العجل تراه ، أما هنا فيمكنك أن تربطها قبل الولادة .

بعد مناقشة قصيرة يعبر الجميع عن موافقتهم وأرتياحهم، ثم يتفرقون، كل يتجه الى حظيرة مواشيه ليعود حاملا شيئا « سباطه » مصنوعة من سيقان القمح المجدولة، فرعا من فروع السنط يصلح كركيزة، ومن لايملك هذا أو ذاك عاد وقد حمل ربطة من الحبال. وانهمك الجميع فى العمل وبصير القرية يوجههم.

— فلان وفلان يقومون بحفر حفرة عميقة هنا.. وهنا.. وهنا. ويضع حجرا صغيرا فى المكان الذى يريدهم أن يحفروا فيه.

— وأنت يافلان اغرس هذه الركيزة هنا وتلك الخشبة هناك.

وبينما أخذ كل منهم يقوم بالعمل الذى أوكل اليه وقف هووسطهم مرتكزا على عصاه، يأمر هذا وينهى ذاك ويصيح فى الثالث، ويلذع كلا منهم بنكتة أو قفشة.

فخليل يقوم بعمله بفتور.

— ياخليل متى تبطل المسخرة والسهر فى الافراح تغنى حتى مطلع الفجر؟ يا أبا خليل خير لك أن تبحث لابنك عن بت الحلال بسرعة والافلت من يدك فلاتحصد غير الندم.

وحتى الافندى القصير لم يسلم من مداعباته.

— يامحمد افندى الى متى ستظل تدرس وتنتقل من مدرسة الى أخرى وقد كدت تشيب؟ وماذنب بنت عمك التى تنتظرك وقد كادت هى أيضا تشيب؟.

وتعلو الضحكات بينما يتشاغل صاحبنا الافندى بما فى يده من عمل ليخفى خجله وارتباكه من قفشات « البصير ».

وهكذا يمضى البصير يشجع هذا ويسخر من ذاك ويغمز الثالث والكل قابل لما يقول بصدر رحب ، ماض فى عمله بهمة ونشاط يملأ قلبه سعادة وغبطة .

ماتكاد الشمس تتوسط كبد السماء ويشتد لهيبها حتى تكون الحظيرة الجديدة قد اكتملت وجلس الرجال فى ظل شجرة لبخ عجوز امتدت فروعها فوق رؤوسهم وكأنها تباركهم ، أو كأنها تحنو عليهم وتدفع عنهم من وهج الشمس كالأم الرءوم . ولاعجب فهى أمهم فعلا . فمن من الجالسين تحتها اليوم شابا كان أوشيخا لم يتسلقها وهو صبى ، أوتنقل بفروعها مقتطفا زهورها ليضعها على شفته العليا متخيلا أن تلك الزهور شوارب تقف عليها الصقور ، أو يربطها تحت ذقنه مقلدا بذلك لحية شيخ الخلوة .

أخذت النساء تفد وكل واحدة منهن ترفل فى ثوبها الأسود الفضفاض ذى الذيل الطويل الذى ينسحب خلفها طامسا بذلك آثار قدميها على التراب .

إن الافندى القصير هو الوحيد بين هذا الجمع الذى يعرف مدلول هذا الذيل الطويل فى ثياب النساء . لقد ترك العنان لخياله ليجمح بعيداً فى آفاق الماضى مستحضرا تلك الأزمان السحيقة حين كان لهؤلاء القوم حضارة

وعن لى أن أداعب فرخا صغيرا كان بعيدا عن الباقين . وأردت أن الاعبه بأن أتمثله فأرا وأقوم انا بأمساكه ثم اصيح جذلا . . « هوه مسكتك » وفعلا قمت بدورى خير قيام . فانبطحت على الأرض ، وركزت عينى فيه ، وأخذت ازحف نحوه بهدؤ . وكلما حاول الهرب سددت عليه الطريق حتى حاصرته فى احد الأركان ثم انقضضت عليه كالصاعقة ، وأمسكت

به . وكدت اصيح منتصرا — « هوه مسكتك ! » وظنى أن الدجاج سيقهقه لهذه الدعابة ونصبح منذ ذلك الحين أصدقاء . قلت كدت أن أصيح به مداعبا لو لم تقع عيناى عليه . فاذا بذلك الفرخ الرخو الضعيف ملقى تحت قدمى ، ينزف الدم الغزير من رأسه . واخذ منقاره ينفتح وينقفل . وأنتظمت جسده رجفة الموت . . .

وازداد صياح الدجاج حتى تبلبل ذهنى ، وقلت لنفسى أن أحسن طريقة هى أن أحمله وأخرج به من هذا المعمعان . ولكننى ما كدت أخرج من الفرجة ، حاملا الفرخ بين فكى ، حتى لمحت السيدة مقبلة ، وبيدها عصاتها المعهودة . فما أن رأتنى أحمل الفرخ خارجا ، حتى جلجل صوتها صارخا ، وكأن السماء قد انطبقت على الارض . وخفت على نفسى ، وأرتعدت أوصالى والقيت بصديقى الذى أصبح فريستى دون قصد ، ولذت بالفرار .

أخذت أتسكع فى الأزقة والحوارى دون هدف . وأقفز من سطح بيت الى سطح بيت آخر . وكم أدهشنى أتساع الدنيا ورحابتها . وأخذت أتذكر قولة أستاذى العظيم .

— انطلق يابنى الى الأرض الواسعة ففيها متسع للأحرار الذين لايرضون عن حريتهم بديلا . أنطلق يابنى وأدع من تعرفهم الى الانطلاق . وحطموا جميعا هذه الأغلال التى ترسفون فيها ، وأنسفوا هذا الظلام الذى تجدون أنفسكم واقعين فيه .

وأخذت أتساءل هل حان الوقت لتنفيذ وصية أستاذى ؟ وهل القى بنفسى فى هذه الدنيا العريضة ، أجوب طرقاتها والتقط رزقى حيثما وجد ، وأكافح ، وأعتمد على نفسى ؟ هل القى بهذه الحياة المريحة المرفهة جانبا ، وأنطلق كأستاذى داعية ومحرضا على الثورة والحرية ؟ وأخذت أتساءل ما الذى سيحدث لى ؟ هل أموت من الجوع اذا تركت دار السيد ؟ لا أظن ! فأنه من النادر أن يموت شخص قادر من الجوع . وحتى الموت هو أحسن لدى من حياة العبودية ، تلك الحياة التى تشعر فيها أن كل لقمة تأكلها يجب أن تعطى مقابلها مداعبات وحركات تسر السادة . وأن تتحمل فى سبيل تلك اللقمة اللعينة والركلات والصفعات . وأنت ممنوع من ابداء أى تذمر أو سخط ، أو حتى مجرد الأحتجاج . وأنما عليك أن تتذلل وتستكين .

كانت خواطرى تدور على هذا المنوال . ولكن أقدامى كانت تحملنى دون أن أدرى فى أتجاه المنزل . ربما كان هاتف الحب للأوطان وللمنشأ ، أو الشوق الى أمى وأخوتي ، أو الجوع الممض الذى كان ينهش أحشائي ، وقتئذ ، أو ربما كانت هذه الأسباب مجتمعة هى التى دفعتنى الى الدخول فى ذلك البيت ثانية .

حين تسللت داخلا ونظرت الى الوجوه وجدتها مكفهرة متغيرة . ووجدت فى العيون نظرات الحقد والكراهية والاحتقار . حتى أمى !شعرت أنها تتجاهلنى وتمضى فى اللعب مع أولادها وبناتها الباقين ، دون أن تلتفت الى ، أو تعيرني أدني اهتمام . وبحثت عن طعامى فلم أجده . ودفعنى الجوع الى البحث بدقة أكثر . واخيرا وجدت صحنى وبه قليل من طعام داخل حجرة مغلقة النوافذ . وماكدت الج الحجرة بعد تردد قصير ، لان الخيانة

لم تكن قد خطرت لى على بال وقتذاك ، حتى أغلق الباب . ووجدت نفسى وجها لوجه أمام السيد وهو يحمل هراوة غليظة بيمناه . وسرعان ما أخذ يطاردني ويهاجمني بها يريد قتلى . وأنا افر منه ، والوذ بهذا الركن تارة
من عينيه نور الحياة وتدلى لسانه من بين فكيه وراح يتأرجح . . .

والتف الجميع حول أدريس يعزونه ، ويخففون عليه . ويواسونه قائلين إن الأم هى الأهم ،وإذا سلمها الله وهو لابد فاعل لأنه يعلم بالحال فستلد عشرات العجول إن شاء الله .

وقطع عليهم كلامهم صوت البصير البعيد وهو يعلن أنه لم يستطع اخراج باقى العجل . وأن البقرة توقفت عن مجرد محاولة طرد الجنين . وإن الطلق توقف تماما . ثم امر بحبل غليظ وخمسة رجال اشداء انتقاهم بنفسه من بين الوقوف .

ربط البصير الحبل حول رأس العجل وأمسك بطرفه الثاني الخمسة رجال وأخذوا يجذبون العجل بكل قوتهم ، وعندما وجدوا أنهم يسحبون البقرة أيضا أوقفهم البصير ريثما يربط رأسها ايضا بحبل آخر يمسكه خمسة رجال آخرون .

وأخذ كل فريق يجذب الحبل بكل قوته والبقرة المسكينة ترقد بينهم وكأنها اسلمت أمرها الى الله . أو كأن الأمر لايعنيها فى قليل أو كثير . وبدأ هذا المجهود يأتي ثماره وأخذ جسم العجل يبرز اكثر وأكثر حتى خرج فجأة . وإذا بالرجال يندفعون الى الخلف منتصرين حتى كادوا أن يقعوا أرضا

هلل الجميع وايقنوا نجاة البقرة . واسرعت زوج ادريس فى اعداد شاى سادة ثقيل وتجرعه للبقرة . وكأن هذا الشاى هو البلسم لكل ماناخا على أيديهم من بلاء . وتنفس الجميع الصعداء وظنوا أن الأمر قد انتهى بموت العجل ونجاة الأم . ولكن البقرة خيبت حتى هذا الرجاء . لأن الطلق الذى كان قد اختفى والعجل فى بطنها عاد اليها الآن . فاخذت تحزق بقسوة وعنف والرجال حولها تعقد السنتهم الدهشة والخوف . وإذا بهم يفاجأون بخروج قطعة كبيرة من اللحم الأحمر ، عرف الافندى القصير فيما بعد أنه رحمها .

تحير البصير وتصبب عرقا وهو لايدرى مايفعل . وانطلقت الاصوات ، وقد احست حيرته ، هذا ينصح بأن العلاج الوحيد في هذه الحالة أن يوقدوا نارا قريبا من الرحم البارز وعندما يحس الرحم بحرارة النار ، سينسحب داخلا رويدا رويدا من تلقائه . وآخر يقسم أن هذا العلاج لاجدوى منه ويأتي بأمثله على ذلك ، وثالث يقترح علاجا آخر .

وارتفعت الاصوات من هنا وهناك . كل يدلى برأيه فى الموضوع . والشيخ أدريس يقف بينهم صامتا يخيم عليه حزن كبير وكآبة . وصمتت الأصوات فجأة حين سحب عمدة القرية البصير من ذراعه بعيدا وأخذ يهمس فى اذنه ببضع كلمات ، عاد بعدها البصير وهو يصيح طالبا سكينا .

إنسل الشيخ أدريس من بين الجمع واختفى . ورغم أن أكثرهم قد رأوه وهو يختفى إلا أنهم تجاهلوا الأمر واستأنفوا ماكانوا فيه وكأنهم لم يروا شيئا . لأنهم جميعا يعلمون أنه سيذهب بعيدا ليختلى بنفسه ويطلق لعواطفه العنان . سوف تدمع عيون الشيخ أدريس وينهنه بالبكاء على هذا الركن الذى انهد فى حياته . سيبكى بقرته التى لن تعوض . وتلك

السنين الطويلة التى اضاعها بتعهدها منذ أن كانت عجلة صغيرة ، حتى اصبحت بقرة . هل سيعود مرة ثانية يتذلل للناس ليساعدوه فى حراثة ارضه ؟ ومن ذا الذى سيتعاون معه فى الساقية وهو لابقرة له ؟ . لقد كان يذهب الى أحدهم برأس شامخ يطلب منه التعاون . كل يأتي ببقرته فيعلقونها فى الساقية لرى ارضيهم ، ولكن أين ذلك منه الآن ؟ سيتعاون معه سكان القرية . وربما عاد صباح يوم الى حقله بعد يوم قضاه فى السوق فإذا به يجد أرضه كلها محروثة . أنهم فعلوا ذلك لغيره فى مثل هذه الظروف مرات كثيرة . ولكنه لن يستطيع أن ينسى أبدا أن ذلك نوع من الصدقة مهما أسموه باسماء مختلفة .

بكى الشيخ أدريس شاكيا الى الله أمله الذى خاب ،وسيعود بعد أن يجفف دموعه ... حد عمدة القرية مشمرا عن ساعديه الممتلئين الابيضين يقطع لحم بقرته ، ويز... ، ويصيح بالقوم بصوت ظاهره إغراء، وباطنه أمر بأن الكيلو عشرة قروش . وسيتدافع القوم ويتزاحمون ليشترى كل منهم كيلو ويدفع العشرة قروش . تدافعا ظاهره الرغبة فى الشراء وباطنه الرغبة فى المساعدة .

وانهمك عمدة القرية يقبض الثمن ويلقيه على منديله الذى بسطه أمامه ويقتطع اللحم ويوزعه .

عندما تغرب شمس ذلك اليوم ستكون البقرة أثراً بعد عين . . وسيجمع الشيخ اطراف منديله بما فيه من الريالات الفضية ويدفعه الى الشيخ أدريس وهو يغمغم بكلمات مواسية معزية .

عاد الشيخ أدريس ليلتها بعد صلاة العشاء حزينا كاسف البال ، ولكن زوجته إستقبلته وكأن شيئا لم يكن ، وكأن بقرتهم الوحيدة لم تمت ذلك اليوم . أحضرت اليه عشاءه كالمعتاد وهى تحاول مسامرته كعادتها . ثم طلبت منه أن ينام مبكرا لأ نه سيذهب من غده الى السوق .

ونظر اليها مندهشا ، ونظرت اليه ، وتبادلا النظرات ثم الابتسامات فقد فهم كل منهما مايريده الآخر دون أن ينبس ببنت شفة ، وعلم الشيخ أدريس أنها ستقوم مبكرة وتحضر اليه جلابية نظيفة ليذهب بها الى السوق . بعد أن تكون قد دست فى جيوب تلك الجلابية بصرة صغيرة تحوى أساورها الذهبية . تلك الأساور التي كانت تحرص عليها أشد الحرص وتدخرها لأمثال هذا اليوم العصيب ، وهاهى اليوم تتنازل عنها راضية لبيعها ويكمل ماتجمع لديه من مال ويشترى بقرة جديدة .

أنتهت القصة بالنسبة للجميع ، حتى شيخ أدريس صاحب البقرة . ولكنها لم تنته عند ذلك الحد بالنسبة للأفندى القصير الذى كان يقبع هادئا بين الجمع يراقب مايحدث امامه بألم وحسرة . ولم يكن مظهره الهادئ ينم عن تلك المراجل التى راحت تغلى فى صدره ناعية على قومه هذا الجهل القطيع وذلك الفقر المدقع ، معجبة مبهورة فى نفس الوقت بهذا التعاون الرائع ، وهذه الأخوة الصادقة . وحين أنفض الجميع نهض هو ايضا ينفض بكفه ماعلق بمؤخرة قميصه من تراب . وكان قد قرر فى نفسه آمرا خطيرا . أو قل كان قد وصل الى قرار فى أختيار وجهته فى الحياة . لقد اختار الكلية التى سيلتحق بها فى عامه القادم بإذن الله .

بلاطة الاعدام

كنت وقتها لأازال طالبا فى كلية الطب البيطرى وكان على أن أقضى جزءا من كل عطلة سنوية فى مديرية مختلفة ؛ متمرنا على مختلف الأعمال التى سيطلب منى القيام بها بعد التخرج . . ومن بين هذه الأعمال التى كتب على الطبيب البيطرى القيام بها . الاشراف على السلخانات وتقرير ما إذا كانت الحيوانات ولحومها سليمة وصالحة للاستهلاك أم لا . . .

وكان على الدور ذلك الصباح للذهاب الى السلخانة . . ورغم أننى احتطت للأمر وآويت الى فراشى مبكرا . الا أننى لم اتمالك نفسى من أن أردد الفاظاً قاسية فى حق المهنة التى اخترتها . وقد أثار سخطى سائق العربة الذى أفزعنى وطير النوم من عينى فى الثالثة صباحا وهو يضغط على « آلة التنبيه » بعصبية وتهور . وكأنه قطع نومه وحضر الى فى هذا الوقت المبكر وقد ملأ الغيظ نفسه ، وكيف يكون المسكين قد أخذ كفايته من النوم وهو لابد أن يكون قد استيقظ قبل ذلك بساعة كاملة على الأقل استعداداً للعمل ؟ ! .

قمت متكاسلا . العن كل شئ يمر بذهنى . وألعن هذه المهنة التى ستحرمنى دفء فراشى فى مثل هذا الوقت من الصباح الباكر . . ثم اسرعت اضغط على زر النور حتى يرى هذا السائق العنيد أننى قد استيقظت فيكف عن هذا الازعاج المقيت الذى اقلق الجيران الذين أوقعهم سؤ الطالع بجوار طبيب بيطرى أو رجل فى طريقه ليكون طبيبا بيطريا . . الحمد لله . لقد فهم السائق وكف عن ارسال ذلك الزعيق الذى يصم الآذان . . .

أما أنا فذهبت اتعثر الى الحمام لاغسل وجهى ، رغم برودة الماء فإنه

فيشل في طرد بقايا النعاس من جفني التي مافتئت تسقط مغمضة عيني رغم ارادتي . . . فاخذت اصب الماء على رأسي صبا حتى شعرت بشيء من النشاط يكفيني لأ لبس ملابسي . .

بنطلون كاكي قديم، وقميص متسخ ادخرهما لمثل هذه الأعمال. ثم حشرت رجلي في « البوت » وهو حذاء من المطاط تصل رقبته حتى الركبة . وارتديت فوق كل ذلك البالطو الابيض. ثم القيت نظرة الى صورتي في المرآة واطمأن قلبي حين قالت لي المرآة انني فعلا أبدو في هيئة دكتور عظيم الشأن والمقام . فاكملت مظهري برسم التكشيرة المعهودة على وجهي . . تكشيرة الحزم والعزم والسلطة . . ثم فتحت درجا سحبت منه سكينة حادة مخيفة المنظر . وخرجت اخب في ثيابي كأنني فارس من فرسان القرون الوسطى خارج لمبارزة خطيرة ! .

وصلنا السلخانة واستقبلتنا الحيوانات المحكوم عليها بالأعدام ذلك الصباح بمظاهرة من الصخب والضجيج كل يصيح . . على طريقته الخاصة لا ادرى لماذا ؟ ! . . ترجلت من العربة ورحت أجول بناظرى أتفحصها الواحد تلو الاخر لاتأكد أنها هي نفسها التي احضرت أمامي مساء الامس للكشف وتقرير ما اذا كانت صالحة للذبح ام أنهـا حامل مثلا أو عجفاء أو مريضة فتعفي ... تأكدت أن هذه الحيوانات هي نفسها التي مررتها بالامس فاعطيت اشارة البدء . . .

• سارت الأمور كالعادة ، ذبح ونفخ وسلخ وتعليق على الشناكل . . وقفت وسط هذه المعمعة آمر هذا واصرخ في ذاك وانهى ثالثا . لايختلج لى جفن ولا تهتز فى شعرة رغم الدماء التي اخذت تسيل كالأنهار

الصغيرة لتتجمع وتصب في المجرى الذى اعدوه لذلك . . ولماذا أهتم وانا نفسى قد قمت بذبح عدد لابأس به من الخراف . فإن من علامات الرجولة في قريتي اثنان . أن تكون قادرا على السباحة . وإن هل عليك ضيف أن تقوم وتذبح ، ولاتضطر لأ ن تجرى هنا وهناك باحثا على من يذبح لك . .

أقول إننى كنت وسط هذه المجزرة وكأننى فى بستان تجرى من تحته الانهار . وكأن صيحات الألم والاستغاثة موسيقى مسلية . . حتى جاءوا به . .

إنه جمل مهيب يمشى مختالا ورأسه مرفوع يكاد يناطح السحاب . . وعلى ظهره سنام يتأرجح ذات اليمين وذات اليسار . فى عجب وخيلاء . . وكان يتبع قائده مطمئنا . ربما ظنا منه أنهم يقودونه الى ماء عذب أو الى غابة مخضرة الأشجار . . ولكنه عندما رأى الدماء تسيل وسمع صرخات الألم والاحتجاج صادرة من التيوس . . وهى اكثر الحيوانات زعيقا وصخبا حين ترقد للذبح . عندما رأى الجمل كل ذلك وسمع كل هذا الصياح تردد وقد اجتاحته موجة من الخوف والذعر الغريزيين ، وحاول أن يستدير ليعود أدراجه . . ولكن الزمام الذى وضع فى أنفه وأمسك به رجل قوى الساعد لم يمكنه من ذلك . . وعندما لم يستطع العودة تسمر فى مكانه مصمما الايتزحزح . وقد باعد بين أرجله ، وأرتكز على رجليه الخلفيتين شأن من يصر على عدم التقدم ولو خطوة واحدة . . وكأني به قد عرف مايحيق به من مخاطر وماسيلقاه قريبا من اهوال . . ولكن الناس لم يدعوه ولم يرحموه . فانهالت عليه العصى الغليظة من كل جانب . واخذ الرجل الممسك بزمامه يجذبه بكل قوته . وآخر يدفعه من الخلف . وثالث يلكزه بين فخذيه بعصا مدببة . . . ولكن كل ذلك كان بدون فائدة . . ووقف الجمل هناك وكأنه الجبل لايتزحزح . وأخذ يصيح مستغيثا وقد تملكه الرعب والفزع . . وأما

القتلة فلم يجدوا مناصا من وضع حبل حول عجزه أمسك بكل طرف من أطرافه ثلاثة رجال أشداء، وأخذوا يجرونه جرا، واخفافه تنزلق فوق السطح المغطى بالدماء المتجمدة اللزجة حتى اوصلوه الى بلاطة الذبح . . وهنا توقفوا وكلهم يلهث ويتصبب عرقا رغم برودة الجو . .

وماكادوا يلتقطون أنفاسهم ويجففون العرق الذى تفصد من جباههم حتى حمل كل منهم عصاه مرة ثانية وانهالوا على الجمل يضربونه هذه المرة على ركبه بقسوة وفظاظة، فبدأ في الأستسلام شيئا فشيئا حتى برك . . فاسرعوا بربط ارجله ربطا محكما منعه من أن يتزحزح ، دعك عن القيام أو المقاومة . . ولكنه لم يكف عن الصياح والتوسل وطلب الرحمة . .

دار الرجل الذى يمسك بالزمام نصف دورة جاذبا الرأس معه ، لاويا عنق الجمل ، ثم أسند رجله اليمنى على مؤخرة الجمل، ومال الى الخلف وهو يشد الرأس بكل مافيه من قوة . . . بينما تقدم آخر وبضربة واحدة الى اعلى من سكين حادة كان قد قطع الجلد والشريان والعضلات وكشف عن احدى فقرات الرقبة . . . وبسرعة عجيبة رمى بالسكين والتقط فأسا وأنهال بها على تلك الفقرة فى ضربات سريعة قاسية والجمل يخرج آهة قصيرة مع كل ضربة . . . وأخذ شريانه المقطوع يقذف بالدم على دفعات وكأنه تحول الى نافورة دموية تقذف بقوة دما على كل من حوله . . ثم جاءت ضربة بالفأس اعقبتها رجفة فظيعة انتظمت جسم الجمل كله وكأنه مس سلكا كهربائيا، عندها عرفت أن تلك الضربة أصابت النخاع وأن صلة المسكين بآلام الحياة وسكرات الموت قد انقطعت، أو على الاقل هذا ماتقوله الكتب، ولكن من يدرى . . . ؟

اكمل الرجل فصل الرأس عن بقية الرقبة مستعملا السكين . . وارتمى الرأس ذو العينين المبحلقتين دهشة أو رعبا على الارض . . حين سقط الرأس كانت هناك نافورتان تضخان الدم بدلا من نافورة واحدة . . وكان الجمل قد توقف عن التأوه ليأخذ في الشخير والهواء يندفع الى قصبته الهوائية المفتوحة حاملا معه الدماء الى رئته . .

أخذت قوة الدفع من النافورتين الدمويتين تضعف تدريجيا حتى أصبحت الدماء تسيل ولا تندفع ، وهنا علمت أن القلب كاد يتوقف بعد أن أعياه الكفاح.

وفجأة شعرت بالدنيا تغيم أمام نظرى . . وأخذت شخوص الناس والحيوانات التى حولى تبهت وكأن الجميع قد غطتهم سحابة حمراء كثيفة . ثم أخذت الدنيا تدور وتلف بي ، وأخذ كل شئ حولى يرقص رقصات معتوهة مجنونة . . وتملكنى الغثيان وكادت ساقاى تعجزان عن حملى ؛ فاسرعت مهرولا وانا ابذل كل جهدى لاحتفظ بتوازني وأمنع معدتي من أن تفرغ محتوياتها أمام الجميع . .

خرجت من السلخانه وانتحيت ركنا واخذت افرغ مافى معدتي . . ثم ارتميت داخل العربة حتى عادت الى قواى وعاد الى تماسكى ، فعدت الى البلاطة الملعونة لاجد الجمل يفترش جلده الذى كان يلبسه منذ دقائق . . لا . لم أجد الجمل في الحقيقة . وانما وجدت أجزاءه مكومة فوق جلده . ولازالت عضلاته تتقلص وترتعش . .

كم أثارني وهزني منظر ذلك الجمل وهو يقتل ، واقول يقتل عامدا لأن كلمة يذبح بعد الذى رأيته بهتت وفقدت معناها فى اذهاننا ، ربما من

كثرة الاستعمال، واصبحت لاتطابق مارأيته فى ذلك الصباح المشئوم. . إنها لم تكن أول مرة فى حياتي أدخل فيها سلخانة . . لكنها كانت أول مرة فى حياتي أرى فيها جملا يقتل . .

جنح بي خيالى بعيداً وأنا واقف أنظر الى هذه الكومة من اللحم بلونه الكريه . . وحملنى بعيدا عن السلخانة الى إيوان احد الامراء أو الحكام فى الماضى البعيد وأراه بعين الخيال فى مجلس انسه وشرابه والجوارى منهن من ترقص عارية أو كالعارية، ومنهن من تغنى بصوت كله دعوة واغراء . ومنهن من تقرع الطبول أو تنفخ فى مزمار . . وفجأة ينتفض الأمير من الغضب بعد أن يسمع فلتة من لسان احد ندمائه – ربما كان الشراب قد افقده صوابه – واذا بالأمير يصفق ويصيح طالبا السياف الذى سرعان مايحضر. فالسياف واقف دائما غير بعيد منه، متوقع مثل هذا الأمر كل لحظة. ويركع السياف بين يدى الأمير وهو يردد بصوت اجش :

« خادمك يامولاى »

ويشير الأمير الى الرجل الذى أخطأ ، وبلسان أثقله الشراب يقول للسياف :

« أعف كتفيه من حمل رأسه »

وبكل بساطة يأخذه السياف بعيدا ليذبحه، ربما على بلاطة مثل هذه التى أمامى . . ويذهب غضب الأمير فى الحال ويشير الى عبيده وخدمه بأنه يريد مزيدا من الخمر ومزيدا من الرقص ومزيدا من الموسيقى والغناء . .

وعاد بي خيالى الى قرننا الحاضر ، القرن العشرين . ورأيت الرجل الابيض يرى من رجل اسود مايغضبه ، وببساطة يخرج غدارته فيرديه قتيلا ، ثم يستأنف سيره مسرعا بعربته لأنه ليس لديه وقت يضيعه في الشكليات . .

ثم رأيت القانون وهو يضع المحكوم عليه بالأعدام على ميزان ، ليعرف وزنه ، ثم يقيس سمك رقبته وطول قامته ، ويمتحن متانة الحبل الذى سيشنق به . ويحاول القانون بكل ذلك أن يمنع القتل بالقتل . .

ثم عدت الى واقعى فنظرت حولى فإذا بمدربى ينظر الى نظرة من يعرف ما أعانيه . وقد وضع ابتسامة على زاوية فمه وكأنه يقول :

لابأس . . . بكره تتعود . . . . ، وبمضى الأيام تعودت . . .

الثور والمحراث

كان قابعا فى الظل هادئا مسترخيا . عيناه مغمضتان نصف اغماضة . مسلما نفسه للذة الراحة التى يحس سريانها فى مفاصله بعد عناء يوم شاق . ولولاتلك الحركات السريعة التى كان يأتيها باذنيه من وقت لآخر لطرد ذبابة ، ولو لا حركات فكه الذى اخذ يعمل ببطء وانتظام ، لظنه المرء سابحا فى عالم النعاس . ولكنه لم يكن نائما بل كان مسترخيا يجتر طعامه ويجتر معه الذكريات . واخذت احداث حياته تتوالى امام عينيه ،وكأنها شريط فلم سينمائي يحكى قصة حياته .

بدأت حياته حين وجد نفسه فجأة وبلا مقدمات فى هذه الدنيا . يتنفس ويتحرك ويرى الحقول الخضراء المترامية الاطراف ويرى السماء الزرقاء الصافية ويرى القمر والنجوم تتلألأ ليلا .

يومها لم يفكر لماذا هو موجود وما الغرض وراء هذا الوجود . يومها لم يكن الا ذلك العجل الصغير ذو الغرة البيضاء التى توسطت جبهته .ولم يكن يهمه فى الدنيا غير الجرى والقفز قفزات لاهية جميلة .

إنه لايذكر قبل ذلك شيئا . ولكنه يذكر بعد ذلك الكثير . أول عهده بالحبال والأوتاد ، وذلك حين أتوا بحبل غليظ ربطوه حول عنقه .وربطوا الطرف الثاني حول وتد ضخم غرسوا طرفه الاسفل فى الأرض . ووقف الوتد ثابتا شامخا لايأبه للعجل الذى أخذ يجذبه تارة ويدفعه تارة أخرى حتى يتخلص منه ، ولكن الوتد كان قاسيا لايلين ثابتا لايتزحزح . وسرعان ما عرف الهدف وراء هذا التقييد . لقد ارادوا أن يحرموه من ثدى أمه . أيامها

كان يشعر بالجوع يكاد يهصر امعاءه وعلى بعد خطوات منه أمه ، وضرعها يكاد يتفجر لبنا. أيامها كان يأخذ فى الخوار بصوت مزعج حتى يبح صوته، ويجذب الحبل بكل قوته محاولا أن يفصمه لأ نه فى تلك الايام كان غرا أحمق لايعلم أن الحبال التى تكبلنا بها الأ قدار قوية لاتنفصم .

كم يحز فى نفسه حتى اليوم منظر أمه وقد أثارها صياحه وآلمها علمها إنه جائع ، وهى تحاول بدورها أن تقترب من وليدها ما استطاعت، علّه ينال ضرعها فيشبع جوعه. ولكنهما سرعان ماكانا يكتشفان عبث المحاولة وتخور قواهما فيهدآن فى يأس .

لقد بدأت قصته مع الحبال والأ وتاد ، أو قصة الاوتاد والحبال معه منذ ذلك الحين. يبلى حبل فيستبدلونه بحبل جديد، وينكسر وتد فيأتون بأوتاد . وبفضل هذه الحبال أنحصر نصيبه من كل هذه الآ فاق الواسعة بهذه الحظيرة التى لاتكاد تحميه من حر أو برد. ومن كل خيرات الارض بهذا العلف المملوء تبنا مخلوطا بالتراب .

كبر العجل وأصبح فى طور الشباب، ونبت له قرنان، فتحول الحبل من حول رقبته ليلتف بأسفل قرنيه. ولكنه لم يهتم بذلك كثيراً، إذ أنه كان مشغولا تلك الايام باشياء كثيرة تكشفت له . فقد لبست الاشياء امام عينيه أبهى ثيابها. وأصبح كل شئ يراه جميلا رائعا . هذه السماء الصافية لم يرها من قبل بهذا العمق وهذا الصفاء . هذه المروج الخضراء لم تكن أبدا بهذا الرواء وهذا الرونق . هل تغيرت الدنيا أم هو الذى تغير ؟ ! حتى جاراته البقرات واللائي لم يكن يعيرهن نظرة ولايلتفت اليهن ، أصبح الآن ينظر اليهن نظرات ساهمة طويلة. نظرات جوعى لاتشبع. بل تثير مزيدا من الجوع، وتأججت فى

صدره نيران الرغبة . هذه البقرات أصبح يرى فيهن مالم يكن قد لاحظه من قبل . وزارته أطيافهن في احلامه حينما يكون نائما ، واستحضر اشكالهن في خياله حينما يكون مستيقظا .

كان في تلك الايام سعيدا يصطلي النار المقدسة التي توهجت في فؤاده وانعكست في سلوكه . فأخذ طبعه يميل الى طبع الثيران اكثر ،واخذ يكثر من التهجم على الغير وكأنه يريد بذلك أن يثبت وجوده وأن يجعل له مركزا بين الجميع . كان صاحبنا أذن في شغل شاغل بهمومه واحلامه ورغباته والأحاسيس المختلفة المضطرمة التي كانت تصطخب في وحدانه كلما اقترب من أنثى . كان هو غافلا بكل ذلك عن القدر ،ولكن القدر لم ينسه لحظة واحدة وكان له بالمرصاد في شكل قيود اكثر ومسئوليات اثقل .

لم يكن يدرى صاحبنا أن هذا التفتح للحياة والحب الغامر الذى اصبح يشعر به نحوها . سيأتي وفي اعقابه مسئوليات جسيمه وشقاء لايرحم ولا ينزاح . لم يكن يدرى أن الوقت قد حان ليدفع ثمن ماقدم له من طعام وحماية ؛ وسيدفع ذلك الثمن من عرقه وكده ، وصبر لاينتهي على الشقاء والجهد والعناء .

كان غافلا عن كل ذلك غارقا في احلامه وآماله . حتى جاء ذلك الصباح اللعين ، والذى كان نقطة تحول في حياته ومنطلقا الى حياة الضنى والكدح . في ذلك الصباح المشئوم الذي لن ينساه طول حياته قادوه الى الحقل وعلقوه في المحراث ، وكان قرينه وزميله ثورا ضخما ثقيل الخطوة يكاد الوقار والرزانة يطفحان منه .

كم كافح ذلك اليوم وناضل . كم قاومهم واستعصى عليهم . كم قفز وجرى وكر وفر ليبعد تلك الخشبة اللعينة عن كاهله ، وعندما سمعها تنكسر ظن أنه نجا ، وظن أنه انتصر ، ولكنهم سرعان ما جاءوا بنير جديد ، وكأنهم كانوا يتوقعون ذلك منه واحتاطوا للامر . كم احتقر يومها ذلك الثور الهادئ الرزين الذى لو تجسد ذل العبودية لم تكن الا ذاته. لقد تخيل ثورنا الشاب فى ذلك اليوم أن الثور المسن يسخر منه ويهزأ من جهوده ومحاولته الخلاص . فاشتعل حقده وتأجج غضبه وثارت فى قلبه كراهية حادة عنيفة على ذلك الأبله الذليل الذى وقف هناك فى منتهى البرود والبلادة يطيع كل أشارة. ويتقدم أو يتأخر حسب الأوامر التى كانت تلقى عليه . كم تمنى ثورنا يومها أن ينطح الثور الكبير نطحة تبقر بطنه أو تقلع عينيه حين قادوه آخر اليوم لحظيرته مرضوضا مضعضعا جسديا ومعنويا وبالرغم من أنه لاحظ أنهم احسنوا علفه وزادوا كميته، إلا أنه لم يجد شهية تعينه ، ولو حتى على الاقتراب منه .

أتوه صباح اليوم التالى ورغم أن رقبته كانت متورمة حساسة إلا أنه عجب من نفسه حين لاحظ أنه اليوم أسلس قيادا من الأمس وأكثر طاعة لهم ورضوخا لأوامرهم . ومع أنه كان لازال غاضبا على الثور العجوز إلا أنه شعر اليوم بتسامح كبير نحوه ، بل أنه خجل من نفسه حين اكتشف أنه يحاول تقليد خطوات الثور المتأنية الرزينة الصابرة . ولم يرفض علفه ليلتها ، بل أنه نال منه أكثر من كفايته . ونام نوما هادئا لاتعكر عليه صفوه أحلام مزعجة ولاافكار ثائرة ، بل أخذ ينظر لكل شئ على أنه قدر مكتوب ، وإرادة لاتقاوم ، وماعليه الاالتسليم والخضوع . ومع الايام انحسرت موجة الثورة عن

قلب الثور الشاب،وأخذ يقترب شيئا فشيئا من اخلاق الثور الكبير،وأخذ يتحمل الألم والشقاء وهو صابر . بل أن جسمه اخذ يتحول وأخذ يودع تلك الخفة والرشاقة . الذى كان فخورا بهما وبدأ يمتلئ ، وكرشه يكبر وجلده يغلظ ؛ وبعد حين لم يكن هناك فرق بينه وبين الثور الكبير سوى اللـون .

إنه يذكر يوم أن علقوه فى الساقية. فقد قاومهم ايضا. فقد كان هذا الأنين المفجع الذى ينبعث منها كلما دبت فيها الحياة يثير اعصابه ويهيج كوامن المه، ولكنه هذه المرة سرعان ماتعلم أن لافائدة من المقاومة. وأن الثورة الفردية ومادام الباقون غير مقتنعين بها لايرجى منها نفع ولاينتظر منها فائدة ،وتعلم أن المطلوب منه أن يدور ويدور ساداً أذنيه عن هذا الأنين والنحيب الذى راح ينبعث من الساقية . بل أخذ يدور ويدور وهو لايدرى سببا لهذا الدوران ولا ماذا تكون نهايته .

إيه يادنيا ! يا لك من أشياء مغلقة على افهامنا ! يالتلك الاسرار الرهيبة والالغاز المحيرة التى تحملينها للحياة والأحياء .

وتنهد الثور بحرقة وألم، وهو يتذكر أن كل هذه الذكريات التى كان ظنها قد اندثرت وذرتها الرياح قد عادت اليه فجأة،وفى هذا اليوم بالذات. لأنهم علقوه فى المحراث مع ثور شاب صغير تحت التمرين .

كم كان مضحكا ذلك الثور الصغير وهو يثب ويقفز ويكر ويفر ويهاجم ويتراجع محاولا بكل الطرق أن يتخلص من قبضتهم . لقد اخفى صاحبنا ضحكة هستيرية كادت تفلت منه عندما لاحظ تلك النظرات النارية

والحقد الأعمى الذى راح الثور الشاب يصبه عليه لوقوفه هادئا رزينا والنير على رقبته مستعدا أن يخطو ويسير جارا المحراث عند اول اشارة .

ماذا كان يريد منى ذلك الثور الغرير الاحمق،أكان يريد منى أن اساعده فى الثورة وأن أشد من أزره فى العصيان ؟ أكان يريد منى أن اقف معه لأ صد تيارا عنيفا يجرف امامه كل مايعترضه ويسحق كل مايعارضه ؟ الم تعلمنى الايام أن اسلم الطرق هو أن تسير مع التيار وتترك له جسدك وروحك يذهب بهما اينما يشاء . الم يعلمنى ذلك الثور العجوز — وهنا تذكر أنه هو ايضا اصبح ثورا عجوزا فابتسم — الم يعلمنى ذلك العجوز أن أكون دائما اول الطائعين وآخر العاصين . كم من مرة ردد هذه الجملة فى آذاني — كن أول الطائعين وآخر العاصين .

وفعلا كنت كذلك وكنت كما اراداني ان أكون،وهأنذا اكسب من ذلك هدؤ البال وراحة الضمير . . .

لا . . لا . إنها ليست راحة الضمير . . إن ضميرى الآن لاستطيع أن اقول أنه مرتاح. ولكنى استطيع ان اصفه بأنه مخدر ، إن ضميرى معذب وقد وخزنى اليوم وهو يذكرني أن الثور الشاب على حق،اننا معشر الثيران مظلومون مهضومو الحقوق . ولكن سرعان ماعاد ضميرى الى خدره اللذيذ والتسليم بما كان وبما سيكون . اذ ما الفائدة من المقاومة ؟ ومن نحن حتى نقف فى وجه التيار ذلك التيار الذى ظل يهدر منذ الأزل. ويقينى أنه سيظل يهدر أبد الدهر .

وفجأة انتفض ثورنا واقفا حين قفزت الى ذهنه فكرة غريبة ، وتوقف عن مضغ جرته ، وقطب مابين حاجبيه فى حيرة وفى جزع ،

واخذ يتساءل : ولكن أين ذلك الثور العجوز الذى علمنى الحكمة وعلمنى الرضوخ ؟ ! . والذى علمنى أن أكون أول الطائعين وآخر العاصين ؟ ماذا نابه ياترى من طاعته وتجنب العصيان ؟ أين ذهب به التيار وفى اى جهة القاه؟ هل هو سعيد ياترى بعد هذا العمر الطويل من الضنى والشقاء ام تراه لازال يكد ويشقى فى مكان ما ! .

كل الذى يعرفه أنهم اقتادوه يوما من حظيرته ولم يعد اليها ابدا بعد ذلك . ولم يسمع به احد من الثيران أو البقرات المجاورة . ونسيه الجميع . وحتى هو ايضا ماكان يذكره اليوم لو لم يأت هذا الثور الشاب ليخلفه على المحراث كما خلف هو ذلك الثور العجوز . الذى اختفى .

ولكن سرعان ما انبسطت اساريره وطفح البشر والحبور من وجهه وتألقت عيناه الخابيتان بسعادة عجيبة ، اذ خطرت بباله فكرة ارتاح لها فؤاده .

— هؤلاء الآدميين الذين خدمناهم بكل اخلاص طول حياتنا لايمكن أن يكونوا ناكرين للجميل ، ولابد أن يكافئونا مكأفاة عظيمة تليق بما اسديناه لهم من خدمات ، وأذن فربما كان ثورنا العجوز المختفى ينعم الآن بحياة لينة رغيدة ، ولابد أن يكون الآن طليقا فى بستان تحف به الازهار وتشقه جداول الماء البارد العذب . ولابد أن يكون معه عدد من البقرات الحسان انتقاهن بنفسه لينعم بدفئهن ، ويتمرغ فيما يمنحنه من نعيم . نعم لابد وأن يكن بقرات كثيرات وليست بقرة واحدة حتى يذوق كل يوم لذة مختلفة ونشوة جديدة وحتى لا يسأم ولايمل .

وضرب ثورنا الأرض بظلفه مسرورا ومؤكدا أن الثور العجوز لابد أن يكون قد ودع حياة النكد والشقاء ، والعمل والجهد، ولابد أنه الآن ينعم بكل هذا النعيم دون حبال تربطه أو أوتاد تحد من حريته أو اناس يلهبون ظهره بالسياط . إن الثور العجوز فى نعيم مقيم الآن ،ولابد أن ثورنا صائر الى نفس المصير .سيذهب قريبا الى ذلك البستان حيث لانير ولامحراث ، حيث لاساقية تتعب أو تنتحب .

ونام صاحبنا على هذا الخاطر الجميل نوما هادئا عميقا ،وزارته أحلام لطيفة حقق فيها كل ماكانت نفسه تصبو اليه وتتمناه ، وهذه نعمة من نعم الله التى اسبغها على الثيران، لان صاحبنا لو لم يكن ثورا لما نام أبد الدهر ، ولقتله الذعر والهم والقلق ، فبعد أسبوع واحد لم يقودوه الى بستان وانما قادوه الى بلاطة الاعدام ؟ . !

سادة وكلاب

لم استطع أن اكتم شهقة اعجاب حين رأيته ، وبالرغم من أنه كان فى حالة يرثي لها وقتذاك رافعا احدى قدميه الأماميتين التى تدلى طرفها الاسفل وراح يهتز مع كل حركة يأتيها – فقد كان يعاني من كسر كامل فى قدمه تلك ،إلا أن كل ذلك لم يخف عن عينى جمال جسمه وتناسقه . . . لم أكن رأيت فى حياتي المهنية كلها كلب صيد بهذه الروعة والجمال . . إن كل عضو فيه يبدو وكأنه ركب فى موضعه بعناية ليخرج فى النهاية كلب صيد من النوع الممتاز . . نحافة مستحبة ولكنها تنفجر صحة وعافية . . رقبة طويلة تنتهى برأس صغير أبرز مافيه عينان متألقتان يشع منهما ذكاء لماح . . سيقان طويلة نحيلة ،ولكنها فى صلابة الفولاذ ، خصر هضيم حتى يمكنك أن تحتويه بقبضتك . . . كل شئ فيه كان يدل على الذكاء والمهارة وسرعة العدو وقوة فى الهجوم لاتبارى . . وفوق كل ذلك كان يمتاز بطاعة عمياء .فقد لاحظت أنه كانت تكفى معه الأ شارة أو الكلمة الخافتة ليفهم وينصاع لما يراد منه . .

إن هذا المخلوق الذى أمامى لم يكن إلانتاج عشرات السنين .وربما المئات من التخير والأ نتخابات والانتقاء البشرى الهادف . . فمنذ مئات السنين الماضية دأب المتخصصون فى تربية الكلاب على أعدام اى كلب لايشير تركيبه الى الصورة التى كانت فى اذهانهم . . أوينحرف تركيبه عن الصورة التى رسموها . . . بينما كانوا يشجعون تلك الكلاب التى ترضيهم ثم تقربهم من هدفهم على انجاب اكبر عدد ممكن من الجراء . . . ويمر هذا النسل الجديد بنفس مراحل التجربة والاختبار ،وهكذا جيلا بعد جيل حتى انتخبوا

هذا الكلب الذى يعد اعجوبة فى التناسق والجمال وأكثر صلاحية لما ارادوه له من اعمال . . . ومن هنا تبدأ قصة هذا الكلب الذى امامى أو قل تبدأ مأساته . . .

بمجرد أن يولد صاحبنا يأخذون فى تدريبه تدريبا عنيفا شاقا لاهوادة فيه . . . يعلمونه الكر والفر . . ويعلمونه متى يهجم ومتى يحجم حين لايكون هناك مناص من الأحجام . . ويعلمونه كيف يكون هادئا ثم فجأة يغضب ويثور فى اقل من لمح البصر ،وكيف يكون نائما ويهب فجأة للدفاع والهجوم، ويعلمونه أن يكون على أهبة الاستعداد دائما وابدا . . . .

إنهم كما سيطروا على جسده وتكوينه حسب ارادتهم شكلوا نفسيته حسب ارادتهم ايضا ، ، علموه أن يفخر ويفرح بكلمات مدح وتشجيع جوفاء تقال له . حتى يظن أنه نال الدنيا ومافيها حين يجد أكلة شهية . . . وأن مجرد ان يتنازل السيد ليربت على رأسه مشجعا يكفى أن يكون بلسما لكل ماناله من كدمات وجروح أثر المعارك الحامية . . .

علموه ايضا أن يهاجم من يريدونه أن يهاجمه دون ان يسأل السبب ، وأن يصل فى هجومه الى حد القتل دون أن يكون قد رأى القتيل طول حياته، ودون أن يكون هناك أى عداء بينهما . . .

ويستمر صاحبنا فى هذه التدريبات والتمرينات شهورا ،ربما امتدت الى سنين، حتى يعرف بالضبط مايراد منه. ويضمنون أنه اصبح رهن اشارتهم قلبا وقالبا ،وأنهم جعلوه يراهم فى صورة الآلهة تلزمه طاعتهم، وأنه اصبح يؤمن أن القتل والقسوة شجاعة مابعدها شجاعة . . وأنه أصبح يرى الاعتداء على الضعيف عدلا، وأن التعدى على الغير فيه مصلحة هذا الغير . . .

يكون صاحبنا قد اتموا اعداده . حين يأتي رجل ضخم أنيق الملبس يحمل سيجارا فاخرا في زاوية فمه، ويدفع الثمن لينطلق به، فقد وجد فيه ضالته ، ومن يومها يصبح الكلب عبدا للسيد الجديد ويخرج معه للصيد . . ويكفى أن يشير بأصبعه نحو أرنب برى يرعى العشب آمنا . غافلا . حتى ينطلق الكلب صوبه ولايتركه الامجندلا بدمه . . . وترتفع قهقهات السيد عالية، وينحنى يربت على رأس الكلب وربما القى اليه بقطعة من السكر تزيده قوة وصمودا وتجعل الكلب اشد استعدادا للهجوم حين يرفع السيد يده مرة اخرى مشيرا الى صيد جديد وفريسة أخرى . . .

في المساء يجلس السيد الى اصدقائه في انتظار الشواء من حصيلة اليوم والكؤوس تدور عليهم، ويأخذ السيد في وصف شجاعة كلبه وخفته وقوة احتماله واحـداث ذلك اليوم . وربما مد يده يربت على رأس كلبه الذى أقعى تحت قدميه، فيمتلئ الكلب زهوا وغرورا، ويقسم بينه وبين نفسه أن يكون أكثر كفاءة في المرات القادمة حتى تزيد قهقهات السيد ويزيد انبساطه.

وتدور الايام على صاحبنا وتتبعها الليالى فيهرم . ويعجف . وتبطؤ حركته ، ويصبح غير قادر على اللحاق بالصيد . . . أو ربما اسرعت الايام والمقادير في دورانها ويحدث لصاحبنا حادث . كأن تدخل ساق من سيقانه شقا وهو يعدو فتنكسر . أو يهاجمه حيوان دفاعا عن نفسه فيخمشه في وجهه ويصيب احدى عينيه أو كليهما . . وهنا تنقلب ابتسامة السيد الى تكشيرة وقهقهاته الى صراخ ولعنات تنصب على رأس الكلب المسكين. وأما تلك اللمسات الرقيقة فإنها تتحول الى صفعات وركلات بعد أن صب عليه جام غضبه . .

واخيرا يضيق السيد ذرعا بهذا الكلب الذى اصبح عالة عليه، فيحمله فى سيارته ويحضره الى لأريحه من عناء الحياة . وصحبة الأحياء الذين سرعان ماينسون . . ويستدير السيد وانا اقوم بحقنه بجرعة مضاعفة من مخدر قوى حتى ينام المسكين، وحتى يعمق نومه تدريجيا فيؤدى الى النوم الاكبر . . النوم الذى لايقظه بعده . . . النومة التى يستوى عندها الذين يعلمون والذين لايعلمون . والذين يملكون والذين لايملكون ، والاقوياء والضعفاء . وربما استدار السيد حتى لايرى خادمه وعبده يموت . . وربما ترقرقت من عينيه دمعتان من دموع التماسيح ثم يعود السيد بمفرده . . .

ليلتها سوف لايتحدث السيد عن أمجاد كلبه الراحل، بل سيكون جل حديثه منصبا على استشارة اصحابه فى أى نوع من انواع الكلاب يقتنى المرة القادمة

ربما ذكرتك قصة هذا الكلب بذلك الجندى المحارب الذى يحارب لدولة معتدية ضد دولة صغيرة لاحول لها ولاقوة الاقوة الأيمان بمبادئها . . يتلقى هذا الجندى مثل ذلك التدريب . . . ؟ ؟ ينتزعون منه انسانيته، فلايرى مجدا إلافى التغلب على خصم اضعف منه وقهره . . ؟ ؟ الم ير هذا الجندى فى قتل رجل لم يره من قبل مجدا له ولوطنه . . ؟ ؟ الم يقم محاربون بقتل اناس لم يروهم حتى ساعة القتل وذلك بألقاء القنابل الحارقة أو نشر الغاذات السامة الخانقة . . . ؟ ؟

وماذا يستفيد المحارب المعتدى من كل هذا العناء ؟ ؟ وماذا يستفيد من تعريض نفسه للقتل والفناء ؟ ؟ ربما لكى يتحصل على بضع ميداليات ويقبض جنيهات قليلة تزيد فى مرتبه ؟ ؟ لابأس . . ولكن بعد أن تنتهى الحرب . ؟

تنتهى الحرب فإذا السادة الذين كانوا اعداء بالامس يصبحون أصدقاء وحلفاء اليوم . . وإذا بهم يجلسون على مائدة واحدة، يخططون الكر والفر والدفاع والهجوم، وتطوير الاسلحة استعدادا للمجزرة القادمة ضد عدو جديد، ربما كان حليفا بالامس القريب . . . .

أما صاحبنا المحارب اما أن يكون عظاما رميمة في غابة منسية ، ملقى فى مجاهل صحراء أو مدفوناً فى ارض مجهولة لن يسمع عنها أحفاده . . وربما اشركوه وملايين غيره في نصب تذكارى يسمونه الجندى المجهول حتى يجد السادة الذين تسببوا فى قتله مكانا يضعون فيه اكاليل الزهور فى المناسبات . . .

وربما كان المحارب محظوظا فيخرج من الحرب بعاهة تلازمه طول عمره وتمنعه السعى وراء الرزق لعياله، فيضطر أن يعيش بقية عمره فى فقر مدقع لادخل له سوى معاشه الضئيل . . .

وربما كان اكثر حظا فخرج من الحرب سليما بجسمه ولكنه محطم الاعصاب مهزوز القيم من فظاعة الاهوال التى رآها، فينقلب الى مجرم عتيد لاتهتز شعرة فيه حين تسقط ضحيته مثخنة بالجراح ليفوز هو بحفنة من النقود.

أما الذين ماتوا فقد استراحوا ، اما الاحياء فيعودون محطمين الى بلادهم التى تستقبلهم استقبال الابطال، ويهب احد السادة ويقف خطيبا ويشيد بشجاعتهم وجرأتهم وبراعتهم فى القتال، وأن مجهودهم ذلك لن تنساه البلاد أبد الآبدين . . .

ولكن هذا السيد نفسه سرعان مايعود الى شلته وكأسه وخيول سباقه ويبدأ هو أولا فينسى أنه كانت هناك حرب . . وأنه كان هناك دمار .

اما المحاربون فتجدهم فى الشوارع والأزقة بحالة رثة بعد أن أعيتهم الحيل فى الحصول على عمل يتعيشون منه ، فيضطرون الى بيع تلك الميداليات التى تحصلوا عليها بجهد جهيد . . . ويكون حاصل الجمع صفر ، لأن كل ارقامه كانت مكونة من اصفار . . . . .

* * *

شتان بين مثل هذا المحارب الذى شارك الكلب حياته ومصيره ؛ وبين ذلك الذى حارب ومات من أجل مبدأ أو عقيدة . . فالأخير هو البطل الذى يستحق الخلود . وهو فى هذه الحال لن يحتاج الى ميداليات يحملها على صدره ولا الى مكافآت تمنح له . . وهو حين يموت يموت قرير العين لأنه بذل حياته من أجل شئ أثمن من حياته . . .

خروف العيد

كان يرعى آمنا مطمئنا مع القطيع الذى تربطه بأكثر أفراده صلة القرابة ، فمن هذا القطيع امه ، واخوته واعمامه وعماته واولادهم . وحتى اولئك الذين ليست بينه وبينهم صلة رحم عرفهم منذ أن ولد أو شاهد ميلادهم .

والمرعى لم يكن غنيا تلك السنة فالخريف لم يكن جيدا فكان عليها أن تسعى وتقطع المسافات الشاسعة لتجـد كفايتها مـن الكلأ ، وكان عليها فـي بعض الاحيان أن تحفر باظلافها حول النبات الملتصق بالأرض حتى تتمكن منـه وتقتلعه باسنانها . لكن كل شئ يهون مادام هو بين هذا القطيع الذى أحبه من كل قلبه ، ومادام يسمع صوت مزمار الراعى كل يوم ، وهو قابع فى ظل شجرة ، يرسل من مزماره أنغاما حزينة فيها شوق وحب وحـنين . وكل شئ يهون مادامت الكلاب الثلاثة ترافقهم متقاسمة حراستهم ،وتراقبهم بانتباه لايفتر وأعينها يقظة لحركاتهم . وكلما تفرق شمل القطيع شمرت للعمل لتجمع هذا الشمل ثانية ، وإن شذ فرد من القطيع أوحاول الخروج عليه ليتخذ سبيلا غير سبيله كانت له بالمرصاد. وسدت عليه الطريق ليعود صاغرا الى القطيع تحت تهديد أنيابها الحادة .

أما هو شخصيا فلم يفكر يوما فى الخروج عن القطيع . فقد كان يشعر باطمئنان بالغ كلما وجد مكانه وسط القطيع يزاحم الآخرين بكتفيه ليفوز بمكانه المفضل البارز بين افراد قطيعه يحيطون به من كل جانب. كم يشعر بسعادة غامرة حين يجد جسمه مضغوطا من كل جانب بأجسام أهله

وعشيرته ، ويسير معهم حيثما اتجهت هذه الكتلة المتماسكة من القطيع موفرا على نفسه عناء التفكير فيما يتجهون . حسبه الراعى بمزماره أمامهم يقودهم حيث يريد . وقد تواتر عن أبيه عن جده عن جد جده أن الراعى لايمكن أن يأخذهم الى مكان فيه ضرر لهم ، ولا أن يلحق بهم مكروهاً . وقد وعى منذ طفولته ونعومة اظلافه ذلك الموت الرهيب الذى ينتظر كل من خالف قوانين القطيع أو عصى أمر الراعى أو غافل الكلاب وهرب ، إنه يذكر تلك القصص المفزعة التى كانت تحكيها امه له عن الذئاب الغادرة . ورغم أنه لم ير ذئبا واحدا فى حياته بعد ، فإن صورته مطبوعة فى خياله بخطوط لاتمحى . إنه يشبه الكلب تماما ، ولاعجب فقد كانوا أشقاء يعيشون فى دغل واحد ، سعداء متعاونين . حتى جاء الى دغلهم الإنسان الطيب فتعرف بهم وصادقوه وعرض الإنسان عليهما أن يتعاونا معه ويقوما بالدفاع عنه وايناس وحدته نظير تكفله باطعامهما وتدليلهما . وتستطرد امه التقية المؤمنة تقول فى صوت غلبه التأثر : أن الكلب وافق فورا واخذ يلعق قدمى الرجل شكرا وامتنانا ، فقد عرف طريق الهداية والصواب . ومن يومها وهما لايفترقان – ولايستغنى الواحد منهما عن الآخر . صحيح إن الراعى يضرب كلابه ضربا موجعا من وقت لآخر لأنهم غفلوا عن الحراسة ، أو أنهم عجزوا عن مقاومة عضة الجوع فاختلسوا شيئا من قوته ، ولكن هذه العذابات كلها ليست فيما تقوله الاخبار الا إمتحانا للكلاب واختبارا لها حتى يعلم منهم ضعاف النفوس أو من أهتز إيمانهم فينالهم عذاب أبدى لاهوادة فيه ولالين .

إنه يتذكر أن أمه فى هذه المرحلة من القصة كانت تتنهد بعمق وأسى ، ثم تظهر فى عينيها نظرة خوف تتلفت يمينا ويسارا تقترب منه اكثر وكأنها

تريد أن تحميه ، أوكأنها تحتمي به ، وكل ذلك حين يأتي ذكر الذئب اللعين . لأن هذا المخلوق الشرير الغادر ظن ما عرضه عليه الإنسان من نعمة ورفاهية ذلا وعبودية ،وتقول رواية أخرى أنه ذهب الى ابعد من ذلك وتحدى الإنسان وكاد أن ينشب أنيابه فيه لو لا أن الإنسان بذكائه الخلاق أستطاع أن يدافع عن نفسه . وانطلق الذئب من يومها طريدا مشردا يعيث في الأرض فسادا ولايتوان عن الحاق الاذى بالإنسان أو بحيــوان آخر إذا وجد الى ذلك سبيلا .

كل هذه الافكار كانت تدور برأس خروفنا الصغير وهو ينتقل من مكان الى مكان باحثا عن الكلأ . ويتلفت بين الفينة والفينة ليتأكد أنه لم يفقد مركز الوسط من القطيع ، وأن الكلاب يقظة منتبهة لكل طارئ أو خطر . فيمتلئ قلبه بالاطمئنان، ويعود الى ما كان فيه من مضغ وتفكير .

وذات يوم . . . . وبينما هو كذلك إذا به يسمع دويا هائلا ظنه في بادئ الامر رعدا . ولكن الذى أدهشه أن هذا الدوى لم يكن يهبط اليهم من السماء، وانما كان ينبعث من اتجاه ما على الارض، فتسمر في مكانه . وتخشبت كل عضلة فيه ، وتوقف عن المضغ في الحال . وانتصبت اذناه واتجهت عيناه المذعورتان الى اتجاه الصوت . وللحظة خاطفة كان القطيع كله يقف هذه الوقفة ، وكأن كل خروف ونعجة فيه قد استحالت تماثيلا من الصخر . ثم دب الذعر والفوضى، وعم الاضطراب كل القطيع . واختلط الحابل بالنابل، وانقسم القطيع الى مجموعات صغيرة تندفع هنا ، ثم تعود وتندفع هناك ، وقد هيجها الفزع والارتباك . وهب الراعى من قعدته والقى بمزماره على الأرض وحمل عصاه وأخذ يجرى هنا وهناك

وهو يلوح بها ويصرخ محاولا جهده أعادة الطمأنينة والهدؤ الى النفوس ، ونشطت الكلاب المدربة فى جمع شمل القطيع واعادة ما انفرط من عقده . وأخذت تلف وتدور فى دائرة حول القطيع حتى لايفلت منه احد .

ازداد الهدير كلما اقترب الشئ الذى ينبعث منه ، وفجأة خفت الدوى المخيف وساد الجو هدوء زاده عمقا ذلك الصوت المزعج الذى سبقه ، حين توقفت العربة بجانب الراعى . وترجل ثلاثة اشخاص يلبسون ثيابا غريبة على هذه البيئة البدوية . وصافحوا الراعى واخذوا يتحدثون معه . وهنا ادرك القطيع أن كل شئ على مايرام ، وأنه ليس هناك مايخشى منه . فأستأنفوا ماكانوا فيه ، وأقعت الكلاب وهى تلهث .

وبعد قليل أكتشف القطيع أن ظنه أن كل شئ على مايرام قد تبخر وان افراده كانت مخطئة لظنها أن زيارة هؤلاء القوم الذين جاءوا وهم يركبون هذا الحيوان الجهنمى لم تكن عرضا من الاعراض التى لاتهمها فى قليل أو كثير . وأن هذه الزيارة لها شأن أى شأن ، ولذلك فقد استولى الذعر على قلوبها مرة أخرى حين تقدم القوم اليها حتى اقتربوا منها وصاروا يتفحصونها الواحد تلو الآخر بعيون مدربة . وأشارت ايديهم الى صاحبنا . وتقدم الراعى ليمسك به . وهلع صاحبنا وذعر ، واخذ قلبه يخفق بشدة حتى كاد يخرج من صدره ، وأخذ يجرى هنا وهناك كمن مسه مس من الجن وهو يحاول جاهدا أن يندس بين افراد القطيع عل اجسامها تواريه وتخفيه . ولكن يد الراعى الخبيرة امتدت اليه وامسكته من احدى قدميه الخلفيتين ، وسحبته خارج القطيع .

لماذا وقع اختيارهم عليه من بين باقي الخراف وعزلوه عنهم . ناضل وقاوم ليعود، ولكن هيهات ، فيد الراعي ممسكة برجله وكأنها قيد من الحديد. ولم يجد فائدة من المقاومة ، بدأ يفكر مرة ثانية ، لماذا هو بالذات ؟ وتملكته الحيرة ، هل يفرح لأنهم اختاروه أم يحزن ؟ هل يشعر بالزهو والخيلاء أم بالذل والهوان ؟ كل هذا يدور في عقله . بينما أخذت الايدى تجس عجزه وظهره ، وافخاذه ، ثم فتحوا فمــه فاحصين اسنانه ورفعوه ووضعوه ليختبروا وزنه ، وهم في كل ذلك لايكفون عن الكلام والمناقشة . أحس أن الراعي غير راض عن الحديث ، فتحرك الأمل في صدره . ووصل الأمل قمته حين أطلقه الراعي وهو يحرك يديه غاضبا . فعاد الى القطيع وهو يقفز طربا . وأبتعد القوم وكأنهم راحلون ولكنهم وقفوا . فخفق قلبه عندما عادوا الى الراعي ، فغاض فؤاده ذعراً. واخذ يندس محاولا الاختفاء مرة اخرى ، ولكن يد الراعي كانت اسرع منه .

قيدوه ووضعوه على ظهر العربة وأخذ في الثغاء والصياح يستنجد باهله . وتقدمت أمه اليه بخطوات مترددة خائفة . ولكن احد الكلاب انبرى لها وهو يزوم مهددا فتراجعت عائدة .

وتحركت العربة بازيزها وهديرها وأشاعة الفوضى في القطيع مرة اخرى . الراعي يصيح ، ونشطت الكلاب لتجمع شمل ماتفرق . وقد كشرت عن انيابها . وكان هذا آخر ما رأى صاحبنا من القطيع قبل أن يختفي عنها الى الأبد .

أخذت العربة تعلو فجأة ، وتهبط فجأة ، وتهتز ذات اليمين ، وتهتز ذات الشمال ، ويرتطم صدره بارضيتها تارة حتى يفر الهواء من رئتيه .

ويرتطم وجهه باجنابها حتى يطير الشرر من عينيه . لقد تعود طول حياته على الشقاء والارهاق والسير مسافات طويلة . ولكنه كان قد اعتاد على كل ذلك حتى الفه ، حتى الكدمات التى كانت تصيب جسمه من عصا الراعى من وقت لآخر كانت اخف وطأة من هذا الجحيم الذى وجد نفسه فيه .

ولكن هذا الجحيم لم يمنعه من أن يفكر محاولا حل المعضلات وهو يردد ترى ماذا يراد بي ؟ ! .

والى اين هم بي ذاهبون ؟ فقد طالت رحلتهم وكأنها دهر ليس له نهاية ؟ ماذا فعل فيستحق كل ذلك ؟ لقد كان طول حياته خروفا طيبا هينا لينا . ماشك يوما فى تلك المعتقدات التى ارضعتها له امه مع لبنها ، كان يؤمن دائما أن الكلاب طيبون لانهم اطاعوا الإنسان ، وأن الذئاب شريره لأنها عصته . كان دائما مع القطيع لايبرحه ولم يخالفه يوما ولم يتخلف عنه . كان يؤمن كما ارادته امه الطيبة أن يؤمن أن الراعى له قدرات تعجز عقولهم عن فهمها . بل أن مجرد المحاولة فى مناقشة هذه القدرات كفر عظيم يستحق من اجله أن يسام العذاب ، وأن يلقى لحمه للذئاب . مرة واحدة يذكرها ولاينساها . مرة واحدة سأل أمه وقد رأى الراعى يضرب احد الكلاب بالسوط حتى أدماه ولايملك الكلب الا أن يتمرغ فى التراب طالبا العفو عن ذنب لايدريه ، بصوت خاضع ذليل تلين له اقسى القلوب . مرة واحدة سأل أمه . لماذا يضرب الراعى الكلاب ويذلهم وقد اطاعوه وتعاونوا معه ويخدمونه باخلاص يقرب من العبادة . لماذا يجعلهم يقومون على حراستنا نهارا وعلى حراسته وحراستنا ليلا ؟ لماذا لايطعمهم سوى الفضلات والنفايات ؟

وصاحت به أمه صيحة مجلجلة ارتجفت لها اوصاله ووجف لها قلبه .

وأخذت تقرعه وتلومه وهى ترتعد خوفا ،وفرقا وكأنه بسؤاله هذا سيوقف الأفلاك عن الدوران وكأن السماء ستنشق . وكأن الأرض ستغور . وليلتها ولليال كثيرة تبعتها لم يستطيع النوم ،واذا غلبه النوم لحظة فلكى يسلمه الى اهوال وفظائع يحلم بها . كان يحلم أن الوادى قد امتلأ بالذئاب الجائعة المتعطشة للدماء ، وأن عواءها يملأ الآفاق ويسد أقطار السماوات . وتتجه كل هذه الالآف من الذئاب اليه وعيونها يتطاير منها الشرر . وانيابها تكاد تنغرس فى لحمه . ولاتكاد هذه الانياب تلمسه حتى ينتفض مستيقظا من حلمه الرهيب وصوفه يقطر عرقا .

ومن يومها لم يسأل ، ومن يومها توقف تفكيره تماما.واصبح اكثر طاعة للقوانين التى تتحكم فى القطيع ، بل وحرص أن يكون دائما فى مركز الوسط منه .

آه إنه تذكر شيئا آخر ، لقد اذنب يوما فى حق كبش عجوزيوم أن كانوا يتزاحمون على الماء وقد بلغ بهم جميعا العطش مبلغه . لقد زاحمه هذا الكبش العجوز ونطحه نطحة فى بطنه ارسلت آلاما لاتطاق فى جميع جسمه . يومها فقد اعصابه وفارقه الحلم الذى اشتهر به وقابل العداوة بعداوة أمر منها ، وأخذ ينطح الكبش وينطحه ، ويتقهقر خطوات الى الخلف ثم ينقض عليه كالصاعقه حتى كسر للعجوز قرنه وسالت الدماء على جبهته ووجهه . ومن يومها يتجنبه الكبش العجوز ويتحاشاه . هل ياترى يدفع الآن ثمن تلك الحادثة ؟ ولكن هل كان عليه أن يتخاذل ويترك للعجوز كل شئ . ويكون ذلك سبة له بين القطيع . ربما ، فإن هناك اشياء كثيرة تحيره ولايعرف الصواب فيها من الخطأ .

على كل عليه أن يسلم أموره للأقدار كما علمته أمه ان يفعل ، ولايحاول الاعتراض أو حتى مجرد التفكير .

أخيرا توقفت العربة بعد أن رضرضت عظامه ، وارهقته . وعندما انزلوه وجد صعوبة فى أن يحتفظ بتوازنه واسلم لهم قيادة . يذهبون به حيث يريدون وكأن الامر لايعنيه

شيئا فشيئا عاوده نشاطه وأخذت الاشكال والاجسام تتجسم أمام ناظريه . وأخذ يتلفت حوله فإذا به فى حديقة غناء لم ير مثلها على كثرة ماجاب فى البلاد . واذا بالحشائش التى كان يحفر لها ليقتلعها باسنانه يجدها هنا نامية حتى غطت ركبه . واذا أمامه يقف رجل وأمرأة واطفالهما وجميعهم ملابسهم لطيفة أنيقة ، شتان بينهم وبين الراعى الخشن الغليظ وعائلته . وأخذ الجميع يربتون عليه ويبتسمون له ، والأطفال يقفزون حوله وقد فاض بهم السرور لمقدمه الميمون . .

وانهمك صاحبنا يأكل ويأكل دون توقف ، ولكنهم سرعان ما احضروا له ربطة ضخمة من البرسيم . البرسيم الذى كان يسمع به سماعا ، وكانت أمه دائما تقول له إنه طعام الأغنياء والمترفين من الخراف . ولم يكتفوا بذلك فاحضروا له كوما كبيراً من الكسب اللذيذ حتى أنه احتار بأى شئ يبدأ .

ياللعجب ويا للغرابة ! بين ساعة واخرى تغيرت حالته من اقصى البؤس والعذاب الى أقصى النعيم والرفاهية ، حتى الماء هنا له طعم عذب مغاير لذلك الذى كان يشربه فى البرك والمستنقعات ، أو ما كان ينشله الراعى من البئر .

واندفع يأكل من هذا وذاك ويشرب من الماء العذب . وشيئا فشيئا مع الشبع والاكتفاء أخذ يعتقد أنه يستحق كل هذا . الم يكن مطيعا لوالدته وللقطيع طول حياته ؟ ربما تكون هذه هى المكافأة التى كثيراً ماحدثته أمه أنها تنتظر المطيعين المصدقين .

وتوقف عن المضغ لحظة وقد انقبض قلبه حزنا وهو يردد . . امى . . القطيع . . . وغص حلقه بما كان يأكل حين اجتاحته موجة من الشوق العارم الى امه وللقطيع والراعى ومزماره ، وسهول قليلة الكلأ ولكنها ممتده لايصل البصر الى نهاية لها . تذكر اندفاعهم الجماعى الى الماء وذعرهم الجماعى من الغريب والدخيل . إنه هنا يفرح لوحده ويغضب ويحزن لوحده وبمفرده . اما هناك فكان الفرح والحزن والخوف ، فرحا وخوفا وحزنا للجميع .

القطيع ! ماذا فعل بعده القطيع ؟ هل عاد الآن الى الحظيرة ام مازال فى الخلاء يتجول؟ ومن اى بئر ياترى شربت أفراده . هل تذكرته بعد اختفائه؟ هل حزنت عليه ، ام انها نسيته بمجرد أن ابتعدت العربة بضجيجها ، وراحت تستأنف ماكانت فيه وكأنه لم يولد ويعيش بينها . ليتها تعلم ماهو فيه من نعيم ورغد العيش ، بل أنه تمنى للحظة قصيرة لو كانت معه تشاركه هذا النعيم . ولكنه سرعان ماتذكر أن هذا الخير مهما كثر وزاد فلايمكن أن يكفيها كلها ، وتخيل هذا البستان لوجاءت بعددها الكامل اليه ، اذن لقضت على الاخضر واليابس فيه . وراودته الشكوك هل تحسن السلوك فى هذا الوسط الراقى ؟ إنه يعرفهم «اجلافا لايتأقلمون» بسرعة كما يفعل هو الآ ن .

إن الله حباه بهذه النعم،لأنه يستحقها عن جدارة . والخير كل الخير في أن ينسى الماضي بملذاته ومآسيه وبذكرياته حلوة كانت أومرة ، وليستمتع بحياته الى اقصى حد . وهنا تنهد بعمق . وأخذ فكه يعمل مواصلا المضغ والاستمتاع بعصارة الكسب اللذيذ .

لم يكن بمستغرب على صاحبنا والحالة هذه ، أن يأكل كثيرا ويفرط في الأكل،حتى أن معدته وأمعاءه لم تستطع أن تقوم بهذا المجهود الكبير الذى القى على عاتقها فجأة . وأخذ الخروف يشعر بمغص حاد في أمعائه جعله يقوم ويرقد ويندفع الى كل اتجاه كالمجنون . وتملكه اسهال عنيف كادت تخرج معه امعاؤه . ولكن سادته الجدد أهتموا بذلك كل الأهتمام،واخذوا يجرعونه ادوية مرة الطعم كريهة الرائحة، وكان لها فعل السحر في شفائه . وقد لاحظ بعدها أن الكميات من الأومباز والبرسيم نقصت كثيرا ، وأن نظام طعامه قد تغير الى احسن . . مما كان له اثر كبير في تقدم صحته ، وزال عنه المرض . وشيئا فشيئا اخذت معدته تتعود على هذه الأطعمة الدسمة، وعرفت كيف تحيلها الى لحم وشحم وأخذ صاحبنا يسمن . . .

ولماذا لايسمن ويضع الشحم على جسمه طبقات فوق طبقات ؟ اليس يأكل كفايته من أجود الطعام ؟ اليس باله خاليا من اى مشاكل ؟ الم يكفوه عناء البحث عن الرزق بل أن الرزق هو الذى اصبح يبحث عنه ؟ . . ومثل هذه الحياة اللينة الناعمة هي كل ماتطمع اليه نفس اى خروف . . .

في فترات كان ضميره يستيقظ فجأة، وتمر سحابة سوداء في سماء حياته الصافية،وذلك حينما يتذكر أصدقاءه واهله والكلاب العجفاء التى كانت تذود عنهم والراعى ومزماره ، والسهول الواسعة والأشجار الصغيرة

التى كانوا يحتمون فى ظلها من حر الظهيرة . كان فى فترات يذكر كل ذلك ويسائل نفسه اليس هذا النعيم الذى هو فيه ثمنا لكل ذلك . وكم مرة قال له ضميره حين يستيقظ بعد غفوة طويلة ، أن حياته الماضية لايمكن أن يكون لها ثمن مهما كان هذا الثمن . هذا النعيم الذى اخذ يتقلب فيه لقد تعود عليه الآن وفقد طعمه، بل لقد اصبح مملا بائخا . إن رائحة الامباز اصبحت تبعث فى نفسه الغثيان . وهذا الماء الزلال كم فقد طعمه ولذته لأنه الآن لايعرف العطش ، فكيف يعرف لذة الرى . إن ماء المستنقعات كان له طعمه وروعته لأنهم كانوا يجدونه بعد عطش شديد، وتلك الحشائش الجافة كانوا يتسابقون اليها لأنهم يجدونها بعد بحث شاق وبعد أن يكون الجوع قد أنهكهم .

وآخذ يسأل نفسه هل تفقد الحياة قيمتها حين يجد الحروف كل ما يريد ؟ وهل لذة الحياة الحقة هو أن تشقى كل يوم الى شئ جديد . ويكون لك في كل فترة من فترات حياتك هدفاً جديداً تسعى اليه .

فى هذه الفترات من تيقظ الضمير كان يكتشف أنه باع اهلهوعشيرته وحياته الأولى بينهم ، بثمن بخس ، وهنا كانت تعتريه موجة من الشوق الذى لايقاوم الى القطيع والى السهول . إنه يريد أن يعود . . .

يريد أن يعود . . . . .

يريد أن يعود . . . . .

ويمتلئ قلبه ثورة مجنونة متقدة الأوار . ويأخذ فى الاندفاع وجذب الحبل الذى يربطه جذبات قوية صارمة، ولكنه سرعان ماتخور قواه، فيرجع الى الظل يرقد فيه وهو يلهث موقنا أن الوقت قد تأخر كثيرا، وأن العودة

مستحيلة ، وأن بينه وبين العودة هذه الحبال القوية التى لاتنفصم .

ولحسن حظ السادة فإن هذه الفترات أخذت فى التباعد، وذكرياته عن البادية وعن القطيع أخذت تبهت وتضيع معالمها ، بل أنه أخذ يقول لنفسه أنه لايصلح لتلك الحياة الشاقة بعد الآن. وأن تلك الحياة لاتصلح له، فقد تغير فيه الكثير . وهناك اشياء ومشاعر حين تتغير أو تفقد من المستحيل أن تعود . . .

استمر صاحبنا فى حياته الناعمة ولاعمل له سوى أن يحيل البرسيم والكسب الى شحم ولحم ، حتى جاء ذلك اليوم الرهيب .

اليوم الذى شعر فيه أن الدنيا حوله تتغير تغيرا أخافه .

اليوم الذى يعبق فيه الجو برائحة الدم المنسكب .

اليوم الذى وضحت فيه لذهنه الحقيقة كاملة، واكتشف فيه كم كانت أمه مخطئة فى تعاليمها . وإن اعداء الخراف ليسو فقط الذئاب التى عصت وتمردت . بل هناك اعداء أقوى من هذه الذئاب وأشد وأعتى . اعداء أتى خطرهم الاكبر من تقمصهم شخصيات أصدقاء وأحباب .

اليوم الذى أكتشف فيه أن هذا النعيم الذى يتمرغ فيه لم يكن صدقة ودون مقابل . ولم يكن لأن البشر مخلوقات طيبة مباركة ، ولكن لأن البشر مخلوقات تعرف ماتريد وتسعى الى ذلك الذى تريده بكل الطرق والوسائل، اليوم الذى عرف فيه أنه كان خروفا طول حياته، وهاهو اليوم يموت وهو خروف .

حرية الحمار

كان حمار الشيخ عبده ليلتها قلقا مسهداً ، ورغم محاولاته المتعددة ظل النوم عنيدا مستعصيا رافضا أن يزور جفنيه المتعبتين ، وأن يمس بيد الرحمة اعصابه القلقة المتوترة . فقام يائسا من رقدته . وتمطى . وكاد يتجه الى المعلف لينال شيئا من تبنه لو لم يحمل الهواء الى منخريه رائحة الأنثى ، فسرت فى كيانه قشعريرة لذيذة أيقظت فى فؤاده كوامن الأشواق ولواعج الذكريات .

تذكر أنه منذ مدة طويلة لم يأخذه أو بالأحرى لم يركبه صاحبه الى وابور الطحين . كم كان يشعر بالسعادة الغامرة حين يضع صاحبه على ظهره أكياس الغلال ويتجهان الى وابور الطحين . لم يكن يشعر بالتعب أو الكلال حين يقوم بمثل هذه الرحلات ، فهناك يجد اصحابا من كل لون ومن كل سن ، ويعود يومها الى حظيرته سعيدا مبتهجا وقد ادفأت التجربة حواسه . وفى أحيان اخرى كان يجد هناك من يتحداه فيبدأ القتال . ويصول فيه ويجول معتزا بقوته وشجاعته ، ويأخذ كل منهما فى الحركة يحاول أن ينال خصمه فى موجع حتى يأتي الأولاد بعصيهم فينهالوا عليهما ضربا ليفترقا وكل منهما يسب الآخر ويتوعده بنهيق يصم الآذان .

إن التغيير جميل مهما كان . أما هذه الحياة التى تسير على وتيرة واحدة ، هذه الحياة السقيمة المملة فإن حمار الشيخ عبده لايمكن أن يتحملها وخصوصا بعد أن هلت على القرية تلك الأتان البيضاء الجميلة . تلك الأتان المدللة الغندورة والتى لايحملها صاحبها أحمالا تنوء بها . ولايضطرها الى سير

المسافات الطويلة . كم يتمنى أن يصادق تلك الأتان . ولو كان فى ذلك هلاكه وخاتمة حياته .

والى هنا كان صبر حمار الشيخ عبده قد نفد واخذت دماؤه تغلى وتفور . وأخذت الشياطين والأبالسة تزغرد فى أعصابه ، واجتاحته ثورة طاغية اطارت صوابه ، فأخذ يقفز ويشب ويركل بحافره كل شئ حتى المعلف المملوء تبنا لم يسلم من هجماته فتحطم وتقيأ مافيه من التبن على التراب فاختلط به .

انتبه الحمار وهو فى عنفوان ثورته وقمة غضبه أن سبب كل هذا الشقاء هو هذا الحبل اللعين الذى قيدوه به ، فركز مجهوده على هذا الحبل ، وأخذ يجذبه جذبات قوية عنيفة . وفجأة تسمر فى مكانه ، غير مصدق عينيه . أحقا ؟ هل أنقطع الحبل وأصبح هو حرا طليقا ؟ أصحيح أن الحرية قد اتيحت له الآن وأن كل شئ قد أصبح رهن ارادته ومشيئته ؟ واخذ يخطو خطوات وجلة مترددة حتى يتأكد أن عينيه لم تخوناه ، وأن خياله لم يجمح به ، وهو يتمنى أن يكون ماناله من الحرية علما لاحلما . وتجلت له الحقيقة أخيرا ،وعلم أن الحبل أصبح لاوجود له . وأنه حر طليق تلك الليلة يفعل مايشاء .

غمرت قلبه نشوة مابعدها نشوة وطغى عليه سرور مابعده سرور ، فمضى يبرطع وهو ينهق معلنا على الملأ أنه حر طليق ، وأنه فرح اشد الفرح بهذه الحرية وهذا الانطلاق .

ولكن ضايقه أشد الضيق أن أحد جيرانه أجابه بنهيق التحدى والدعوة الى القتال . ورغم أن حمار الشيخ عبده كان يعلم أن من العبث

اضاعة هذه الليلة في قتال لافائدة منه ، الا أنه ليس مثله من يتجاهل دعوة التحدى ، فتوجه الى ذلك المتحدى وبسرعة خاطفة اطبق بأسنانه على رقبته ولم يدعه حتى برك أرضا وغبر وجهه بالرغام . واكتفى حمار الشيخ عبده بذلك ، وانطلق مهنقا يبحث عن مالكة قلبه وخياله .

كم كان يحلم بمثل هذه الليلة . ما اجمل الحرية والأنطلاق . إنه الآن يشعر أنه سيد نفسه ، وأن الدنيا كلها بما فيها من مأكل ومشرب ملك حوافره. ما احلى أن يبرطع خفيفا ويذهب حيثما شاء من غير آدمى يركب على ظهره ويوجهه بعصاه ، ويلهب جسمه بسوطه ليسرع . الا تبا لهؤلاء الآدميين ينعمون وحدهم بالحرية ، ويفرضون علينا معشر الحمير العبودية والقيود ، ويحملوننا مالاطاقة لنا به من المشاق . ومن اجل ماذا كل هذا ؟ أمن اجل حفنة من تبن تلقى فى المعلف كل مساء ؟ أو ربطة قصب جاف طالما يسبب لنا التهابات فى حلوقنا ؟ ويوم يرضون عنا كل الرضا ويرغبون فى اكرامنا يلقون الينا ببعض الفول أو الكسب أو الشعير .

ولكن ماله الليلة ولهذه الافكار السوداء المظلمة ،أن الليلة أثمن من أن تضاع فى تذكر الآلام والاحقاد . ولهذا فقد هز رأسه وكأنه ينفض منها هذه الافكار ومضى فى طريقه مبرطعا مهنقا يبحث عن غايته . . .

حتى وجدها . . .

ودعها فى منتصف الليل منهوك القوى . يمشى مشية متعب لاتكاد سيقانه تسندانه واخذ يتساءل ثم ماذا بعد هذا ؟ إن الليل مازال طويلا أمامه . وهاهى الحرية المطلقة التى كان يحلم بها ، ماذا يفعل بها الآن ؟ فليذهب الى حقل برسيم اخضر مرعرع طالما رآه فى مجيئه وذهابه . واتجه الى الحقل واخذ

ينتقي ما لذ وطاب . ويأكل بتمهل وتكاسل ، شأن من وجد العمر ممتدا أمامه وهو لايعرف مايصنع به ، حتى امتلأ كرشه واكتظ . ولم يستطع أن يبتلع لقمة اخرى ، بل أنه شعر بمغص نتيجة الشبع الزائد . وشعر بعطش فأتجه نحو غدير وأخذ يعب منه حتى ارتوى .

وعندما ارتد عن الغدير كان الشعور بالفراغ والملل يطبق عليه من كل جانب . ماذا يفعل ببقية الليلة ؟ هل يذهب ويتعارك ؟ ولكنه متعب منهك وهزيمته في أي معركة مؤكده . ولماذا يتعارك أساسا ؟ اليس الذين سيتعارك معهم أخوته وزملاءه ؟ . ولماذا لاينزع الشر من قلبه ويعيش في سلام ؟ .

ولكن أين يذهب الآن ، هل يفر الى الصحراء كما كان يتخيل نفسه سيفعل يوما ما ويختفي فيها طول النهار وينزل القمرية ، بالليل ليتزود فيها بالكلأ والماء والجنس كما تفعل الوحوش ؟ ولكن ما أدراه ألا يلتقي به ضبع أو قطيع من الذئاب فيموت موتة دامية شنيعة . وأقشعر بدنه عند ذلك .وفقدت الحرية في دماغه كل معانيها البراقة .

كم كانت دهشته حين وجد اقدامه تقوده الى حظيرته حيث الدفء والأمان والعبودية . ورقد متنهدا وقد شعر بالكلل والتعب يسرى في كل اوصاله ،وأسند رأسه الى المعلف ونام ، وآخر فكرة تجول في رأسه أن للعبودية لذتها ايضا .

لقد كانت الحرية أكبر من أن يحتملها الحمار لليلة واحدة فقط . وذلك لأنه لم يكن الاحمارا لايرى في الحرية أكثر من اشباع الرغبات .

وجاءه صاحبه صباح اليوم التالي بقيد جديد ، ربما كان أنعم ملمسا ولكنه أشد قوة من القيد القديم . ولمح الحمار على وجه الشيخ عبده بسمة ساخرة وهو يقيده بالقيد الجديد .

لوسي الجميلة

كانت السيجارة التى القيتها على الارض لازالت مشتعلة ، تنفث دخانها الذى اخذ يتصاعد فى شكل حلزوني . وكأنه افعى ترقص على نغمات مزمار لأحد فقراء الهنود . . . ولكنى وجدت يدى تمتد لاشعال سيجارة أخرى علها تنجح فيما فشلت فيه السجارة الاولى . وتريح عن صدرى السأم والكآبة اللذان كانا يخيمان عليه ويكتمان انفاسى . . .

فى هذه الحالات وعندما تكون نفسية الإنسان فى أسوأ حالاتها لايستحضر فى ذهنه الاالجوانب السوداء من حياته . . . ما الفائدة التى جنيتها من هذه الدراسة الطويلة الشاقة . . . ؟ وما الذى عاد الى من سهر الليالى واستظهار اسماء مئات من الشرايين والأوردة والاعصاب . ومعرفةمواقعها من جسم الحيوان واين تتفرع . . . ؟ ولماذا كان على أن أعرف أسماء ووظائف العضلات المختلفة التى تغذيها هذه الشرايين والأعصاب ؟وعشرات العلوم الأخرى . . . ؟ هل حصيلة كل ذلك هذه الجنيهات التى ماتكاد تستقر فى جيبى آخر كل شهر حتى تأخذ فى الطيران الواحد تلو الآخر حتى تختفى جميعها تاركة جيبى أفرغ من فؤاد أم موسى . والشهر الجديد لم يكد يبدأ . ؟

أن المهن الأخرى تدر على صاحبها بجانب المال الوفير أحتراما أدبيا . . أما نحن فلا هذا ولاذاك . . كم من مرة أقبل الناس على حين سمعوا أننى دكتور ولايكادون يعرفون أن حضرتي دكتور بيطرى حتى يولون وجوههم جهة أخرى . . . إننا بسبب جهل اغلبية السودانيين لسنا جنودا مجهولين فحسب بل ومضطهدين ايضا . . . أننا كالحيوانات التى نعالجها نكد ونكدح ليأكل غيرنا السنابل ولايبقى لنا سوى الضريس . . .

أليس غريبا وعجيبا فى نفس الوقت أن يسأل انسان مثلى نفسه لماذا نجح وتقدم زملاءه ؟ ؟ ولماذا لم يفشل فيضطر أن يبدأ الصعود من أول السلم فيفتتح حانوتا صغيرا يبيع فيه الشطة أو السعوط ،وتمضى الأيام فإذا هو مستو على المقعد الخلفى فى سيارة غالية الثمن وامامه سائق مأجور . . وحينئذ لايهم إن كان يستطيع أن يكتب أسمه أم يكتفى البنك ببصمته ؛ فهو فى كلا الحالتين محترم مرهوب . . .

كانت هذه الأفكار السوداء تلف وتدور فى رأسى حتى كادت تعصف به حين سمعت صوت محرك سيارة . ونظرت من النافذة فرأيت السيارة السوداء الفارهة تزحف نحو مكتبى وتقف أمام الباب . ورايت السائق يترجل مسرعا ويلف نصف دورة حول السيارة ، ليفتح الباب لتبرز منه سيدة نزلت من السيارة ؛ بحركات مدروسة التوقيع وكأنها موسيقى سماوية . . . يا ألهى إنها ملاك فى صورة إنسان . . . إنها فارعة الطول . . بشرتها كالبلور وشعرها خيوط من ذهب وعينيها فى زرقة السماء . . .

وأخذت الأفكار السوداء التى كانت تصول وتجول فى رأسى تتطاير قطعا وكأن لغما قد أنفجر تحتها وأخذت هذه القطع تختفى تاركة سماء صافية ضاحكة . . . وقلت فى نفسى إن الدنيا لابد أن تكون بخير مادام فيها مثل هذا الجمال . . .

ودخلت السيدة تخطر يسبقها شذا عطرها الفواح وكأنه يفسح لها الطريق . . . وتبعتها كلبة بيضاء صغيرة الحجم كثيفة الشعر غطى شعرها كل شئ فيها ، حتى عينيها ، فاصبحت وكأنها كتلة متحركة من القطن المندوف . . .

حيتني السيدة بايماءة لطيفة ومدت الى كفا تناولتها فاذا هي ناعمة رخصة ، نعومة اوراق الورود . . . وجلست وانحسر ذيل فستانها حتى كشف عن ركبتين مستديرتين حسنتي التكوين تحتهما ساقان كأنهما عمودان من النور . . .

تبادلنا كلمات المجاملة العادية ،وأخذنا نتحدث عن الطقس بينما التقطت هي الكلبة ووضعتها على حجرها ، واخذت الكلبة تلعق كل جزء من جسمها تعرى من الفستان وما أكثره . . . حتى خدودها وشفتيها وعنقها ، وحتى المجرى الذى بين نهديها لم يسلم من لسان الكلبة الشغوف . . . . كل ذلك والسيدة ماضية في الحديث وكأن الأمر لايعنيها . وأنا قابع هناك أسمع وأنظر مبهور الأنفاس، وقلبي يدق وكأنه مطرقة حداد نشيط . . . .

وأخيرا دخلنا في الموضوع الذى جاءت من أجله . . إنها لوسى طبعا . كلبتها المدللة .

— هل لوسى العزيزة تعاني مرضا ما ؟ ؟

— لا ، لا ، بعد الشر عن لوسى . . . لوسى مش أيان . . . لوسى الصحة بتاعه كويس كتير . بيلعب كويس . بياكل كويس . كل حاجة كويس . . . لكن بس فيه حشرات في الجسم بتاعه . . . احنا بنحميه في البانيو كل يوم « بالشامبو » لكن مع كده بيكون فيه الحشرات دى . . .

وعلمت أن لوسى الجميلة مصابة بالحشرات التى نسميها « القراد » فطمأنت السيدة بأن علاج الاميرة البكماء سهل ومتيسر . واخذت اتحدث اليها وأناقشها في أسباب وجود هذه الحشرات ، واحتمال أن حديقة منزلها

ربما تكون معرضه لدخول كلاب أخرى تأتي بهذه الحشرات اللعينة . . . ولكنها قاطعتنى قائلة :

– لا لا الجنينة مش فيه حاجة . . . لكن فيه واحد بواب جنبنا عنده كلب كبير آوى آوى . . . لوسى دايما يروح يلعب معاه . انا كلمته كتير يالوسى أنت مش يلعب مع الكلب ده لكن هو مش بيسمع الكلام . . .

ولا أدرى ما الذى جعلها تفطن فجأة الى السبب الذي من أجله لاتفتأ لوسى تذهب الى كلب البواب . . . ربما كانت نبرة في صوتي . . . أوبسمة رفت على شفتى دون أن أشعر بها . . . وربما كانت نظرة لم استطع اخفاءها لأن وجنات السيدة تضرجت حتى اصبحت بلون التفاح وقالت وهى تربت على ظهر لوسى وتتخلل بأصابعها شعرها :

– ايوه دى معلهش اذا كان لوسى بيجى مبسوط . . . لكن الكلب التاني وسخان كتير كتير يادكتور . . . وهو متوحش كمان يمكن يعض لوسى .

فأخذت اطمئنها بأن الكلاب لديها من النبل مايمنعها من ايذاء انثى صغيرة مرهفة مدللة .

بينما كان أحد مساعدى يقوم بعلاج لوسى ، وبينما كانت السيدة ترثر ، وتقفز من موضوع الى آخر ، كنت انا حاضرا بجسمى فقط ، اما خيالى وخواطرى فقد انطلقت تجوب الآفاق . . . تخيلت كلب البواب كلبا ضخما معتدا بنفسه ومعتزا بها رغم فقره وحاجته . . . أن اكثر طعامه يلتقطه من اكوام القمامة . . . وجسمه يعج بالحشرات التى تطلب قوتا ممن لاقوت له . . . تخيلته ينبش فى اكوام القاذورات عله يجد شيئا مما يمكن أن يؤكل اذ ليس لدى صاحبه مايشبع جوعه . . .

ثم تخيلت لوسى وكل ماتنعم به من رفاهية ونعيم وانواع الاطعمة الكثيرة التى لم نسمع بها نحن الآدميين الذين يعيشون فى السودان . وذلك الشامبو الذى يحمونها به ولم تسمع بأسمه نساؤنا . . .

ثم تخيلت لحظة اللقاء بين الحبيبين حين تذوب كل هذه الفوارق ، وحين ينسى الشقى شقاءه والمتنعم نعمته ولايكون هناك سوى أمنا الطبيعة وماتمليه عليهما من سلوك بسيط غير معقد . . .

إن الحيوان قد حقق المساواة بأروع معانيها ببساطة . . تلك المساواة التى لم يستطع الإنسان تحقيقها بكفاح مئات السنين وبأنهار من الدماء يبذلها عن طيب خاطر .

هلت علينا لوسي تهز جسمها بعنف تنفض عنه ماعلق به من ماء إثر الحمام ، وحملتها السيدة غير مبالية بفستانها الذى ابتل ، وشكرتنى وخرجت. . وسمعت محرك السيارة يدور ، وتحركت السيارة بمن فيها حتى اختفت . .

وفجأة جاءني خاطر انتفض له جسمى :

– رباه ماذا كانت ستقول عنى هذه الغادة الحسناء لو طلبت منها أن تصفنى كما تراني هى . . .

وجاءتنى الإجابة :

– واخد سوداني قصير آوى آوى – اسود آوى آوى –

وربما أكون فى نظرها ايضا وسخان كتير كتير . . .

وابتسمت فى مرارة .

كلب الخفير

أن الطفل حين يولد لايكون له رأى فى أختيار والديه ، ولاالمستوى الذى قدر له أن يعيش فيه . وبالتالى ليس له إن يقرر أن كان سيعيش سعيدا أم سيقضى حياته يقتات بالشقاء ويشرب المر .

يولد طفل فى أحد القصور ، ومنذ صرخته الأولى يجد نفسه محاطا بالخدم والحشم ، يلبون طلباته مهما كانت طفيفة . ويجد أبرع الاطباء رهن أشارته ، أو ان شئت الدقة رهن سعلته أو انحراف مزاجه .

ويولد فى نفس اليوم طفل آخر فى ركن مظلم من أحد الاكواخ الحقيرة وفوق برش قذر ، يحط عليه الذباب . وهذا الطفل لن يجد منذ صرخته الأولى غير الشقاء والعذاب أينما اتجهت عيناه .

الطفل الأول سيجد نفسه فى القمة من يوم ميلاده . وسيجد أن كل شئ قد أعد له . وأن مستقبله الزاهر السعيد ، قد رسم له بدقة متناهية . سيجد الطريق أمامه معبدا الى مستقبل مشرق مهما كان غبيا ، ومهما كان فى خلقه أو خلقه من نقائص وعيوب . اذا كان فهمه متواضعا فهناك عشرات المدرسين الذين يكرسون وقت فراغهم لدفعه دفعا خلال سنى دراسته . وإن اخطأ فهناك من المال والجاه مايغطى كل الأخطاء . حتى القانون فى أحيان كثيرة تجده يغض الطرف وينحنى لمثل هذا السيد السعيد .

أما الطفل الثاني فسيجد نفسه فى الحضيض ، وعليه أن لايعتمد الاعلى الله وعلى نفسه . عليه أن يبدأ من الصفر وفى أحيان كثيرة مما هو دون الصفر .

عليه أن يكافح وأن يناضل . عليه أن يشق بمفرده طريقا وعرا لاماء فيه ولاظل . عليه أن يتقدم وأن يزيح عن طريقه عقبات كأداء . وصخورا ثقيلة خشنة جارحة . وعليه أن يقاتل ويحارب أعداء لاقبل له بهم . وتكون النتيجة أن يصل ندرة من هؤلاء الاطفال الى حياة يمكن أن تسمى تجاوزا حياة كريمة ، أما اغلبيتهم فيموتون ويبتلعهم المجهول قبل أن يصلوا ولو الى منتصف الطريق .

الكلاب أيضا . ليس لها خيار ولا إرادة فى اختيار سادتها . وبالتالى فى أختيار الحياة التى ستحياها ولامستوى المعيشة الذى سيكون من نصيبها .

جرو صغير أعجف يذرع الشوارع والحوارى دون هدف يكاد يهلكه الجوع ، وتمتص مابقى من دمائه الحشرات التى لاترحم . هذا الجرو المتشرد ربما وقعت عليه عينان زرقاوان لحسناء اجنبية ، وهى تمر بعربتها الفارهة . واذا بالعربة الفارهة تقف فجأة مهتزة كأرجوحة لطيفة . وتترجل منها الحسناء وقد غمرت قلبها الحساس موجة طاغية من الحنان والشفقةوالحب نحو هذا الجرو المسكين الجائع . وتلتقط الجميلة الجرو القذر وتربت عليه وتضمه الى صدرها العاجى وتقبله ودموع الحنان والرحمة تطفو من عينيها وهى تناغيه :

— اوه ! ياحرام أنت جعان ؟ مسكين ! مسكين كتير .

ومن يومها سيخط القدر أن هذا الكلب محظوظ وسعيد ستأخذه الحسناء ذات العيون الزرقاء وذات الشعر الذهبى والخصر النحيل ، ستأخذه هذه الحورية فى عربتها الفارهة الى بيتها الأنيق حيث الأبسطة الحريرية

الملمس ، حيث الأثاث الجميل المنسق ، حيث الستائر الملونة الزاهية ، حيث الحجرات المكيفة بالهواء ، حيث ما لذ وطاب من الاطعمة والاشربة .

إن مثل هذا الكلب السعيد سيجد فى مستقبل ايامه عناية طبية لايجدها ملايين البشر . عندما يسعل أو تخدشه شوكة أو تتعلق بجلده حشرة ، ستأتي به الحسناء الى عيادتي وكلها قلق عليه وخوف على صحته . سترجوني الجميلة وتتوسل الى أن أعتنى به وأعالجه دون أن اسبب له ألما . ستشهق الحورية وكأن صدرها سينشق وترفع احد حاجبيها وتزم شفتيها وهى تصيح قائلة
— أوه . . نو !

وذلك حين اطعنه بأبرة البنسلين فى الوقت الذى يخلع الآف الناس ضروسهم دون بنج .

هذا احد الأحتمالين . أما الاحتمال الثاني فهو الذى حدث لصاحبنا الذى نريد أن نتكلم عنه .

يبدأ صاحبنا أيضا كجرو صغير أعجف متشرد فى الطرقات دون هدف ودون غاية . ولكن فى حالته لاتقابله سيارة فارهة وانما يمر بقربه خفير يحمل عصاه ، وصرة طعامه ، فى طريقه الى عمله . سيراه الخفير ويتجاوزه . ولكنه بعد خطوتين يلتفت اليه ثم يبطئ خطواته بعض الشئ . ثم يتذكر زوجته واطفاله الخمسة وأن هذا الكلب سيكون عبئا جديدا عليه . ويكاد يمضى فى طريقه لو لم يشق اذنيه نباح صغير ممطوط اقرب الى العواء وكأن الجرو قد أحس أن الخفير متردد فراح يتوسل اليه ويترجاه . وهنا يتوقف الخفير تماما ويستدير عائدا الى الجرو . فيراه مقعيا ينبح وقد مط رقبته

فى اتجاهه و كأنه يناديه . فيذهب اليه ويحمله ويربت على رأسه الصغير . .

وهنا يخط القدر وهو يبكى ويتوح ، الا ما أشقى هذا الجرو المسكين . سيعاني طول حياته من الجوع والحرمان لأ ن من تبناه جائع محروم .

ومنذ ذلك اليوم يبدأ صاحبنا حياة نصف متشردة . إن اللقيمات التى يلقيها اليه سيده وتلك العظام التى تكون من نصيبه بعد أن يكحت من عليها اللحم كحتا ، لاتكفى لأشباع جرو فى طور النمو . يسير الى الشباب بخطى واسعة . ولذلك فقد تعلم صاحبنا أين يجد أكوام القمامة لينبشها . وتعلم كيف يكافح الصقور الكاسرة ليشاركها طعامها من الرمم والفضلات .

تعلم أن يحتمل اللعنات والركلات من الكبار ، وقذائف الحجارة من الصغار . وكيف يضع ذنبه بين رجليه ، ويرخى أذنيه . ويضع نظره الذل والمهانة والأستعطاف فى عينيه . تعلم أن يصيح ويعوى طالبا الرحمة والعفو والمغفرة عن ذنب لايدرى ماهو ، وعن جرم لايعلم متى وأين أتاه .

أما حين يمرض مثل هذا الكلب فإنه لايجد أحدا يحضره الى عيادتي ، أو يعتنى به ، أو يمرضه . بل يتركوه طريحا فى ركن مهجور يئن ويشكو . ويتمرغ فى التراب كلما تألم ، حتى تعفيه أمه الطبيعة من هذا العذاب اما بالموت أو بالشفاء . . .

قلما تجد فى أمثال هذه الكلاب عظمة مستقيمة . وذلك نتيجة الكسور المتعددة الناشئة من الضربات القاسية أو الحجارة الغادرة والتى تركت لتبرأ على الطبيعة دون عناية . . .

ومطلوب من مثل هذا الكلب بعد هذا العذاب كله ، وهذه المعاناة ، والآلام التى لانهاية لها ، مطلوب منه أن يحب الناس والوطن وأن يعبد سيده الخفير عبادة . وأن يهب مدافعا عنه حتى الموت اذا داهمه لصوص ، أو تعدى عليه أحد . مطلوب منه أن يسهر طول الليل يحوم حول المخزن الذى يقوم سيده بحراسته حتى يتمكن السيد من النوم ملء جفنيه وهو مطمئن .

كانت حياة صاحبنا تسير على هذه الوتيرة الواحدة ، حتى جاء ذلك اليوم الذى غير مجرى حياته . فبعد سهرة ليلة كاملة لم يكف فيها عن النباح والتهديد والوعيد لكل من تسول له نفسه الاقتراب من المخزن ، شعر فى الصباح انه ليس على مايرام . وأحس بمغص فى أحشائه بدأ خفيفا ، ولكنه أخذ يشتد ويعنف حتى شعر به حادا يعتصر امعاءه ويكاد يمزقها . وكما تعود فى مثل هذه الحالات أخذ يبحث عن مكان ظليل بعيد عن الناس يرتاح فيه ويستعيد نشاطه قبل أن ينطلق بحثا عن الرزق .

ولسؤ حظه المنكود تصادف أن كان ذلك اليوم يوم جمعة . وجميع الأطفال بطبيعة الحال لم يذهبوا الى المدارس ، وقد اطلقهم اباؤهم فى الشوارع والحوارى لينعموا هم بالراحة والهدؤ . واكتشف الاطفال الملاعين مخبأه . ولما لم تكن لهم تسلية أخرى يزجون بها الوقت . لم يروا بأسا من رجمه بالحجارة . والفرار من أمامه مقهقهين عابثين كلما اخافهم بهديره وتكشيره عن أنيابه . ووجدوا هذه اللعبة مثيرة ومسلية . وكم تكون اكثر تسلية واثارة لو أستطاعوا أن يحاصروه فى ركن وينهالوا عليه جميعا بالحجارة فى وقت واحد .

ونفذوا خطتهم ، ووجد صاحبنا التعس نفسه محاطا بهم من كل جانب والحجارة تنهال على كل جزء من جسمه ، حتى كادت روحه ان تزهق . وتيقن أنهم يريدون هلاكه . ودفعته غريزة حب البقاء ، والدفاع عن النفس أن يقف موقف المهاجم . بعد أن ايأسه من النجاة موقف المدافع . فجرى فى أتجاههم وهو يرغى ويزبد ، مكشرا عن أنيابه . فتفرقوا هاربين ناجين بانفسهم . إلا طفلا صغيرا فى نحو السابعة كبل الفزع ساقيه فاخذ يصرخ صرخات مجنونة ، ووقع على الأرض فتعثرت قدمه بحجرة جرحها وأسال منها الدماء .

ورغم أن الطفل رأى الكلب يختفى دون أن يمسه باذى فإنه ظن أن من دواعى البطولة أن يدعى أن الكلب عقره .

وهنا انتفض المجتمع العملاق من سباته . وتذكر أن للخفير كلبا . وتحرك هذا المجتمع بكل أجهزته نحو الكلب المسكين بغية تدميره وسحقه . وأخذت القصص عن شراسته وتوحشه وتهجمه على المارة تبتكر بالعشرات . وتذاع أسرع من لمح البصر . وتأكد الجميع أن هذا الكلب لابد أن يكون مصابا بداء السعر الوبيل . الذى لاعلاج منه . ولاامل فى شفاء من يصاب به ، حتى امتلأ قلب والد الطفل فزعا وفاض خوفا على حياة أبنه . فحمله واسرع به الى المستشفى . . .

وأبلغت سلطات المستشفى سلطات البوليس . وفتحت سلطات البوليس محضرا ضد الخفير ، وابلغت سلطات البلدية بأن هناك كلبا مصابا بالسعر يصول ويجول فى المدينة .

وفزعت سلطات البلدية أيما فزع لهذه الكارثة الماحقة . وارسلت في التو واللحظة خمسة عساكر للقبض على الكلب المسعور ، وابلغت سلطات البيطرى بالامر الخطير .

واستعدت سلطات البيطرى لاستقبال كلب فظيع مسعور افزع المدينة واخاف المواطنين وكدر صفاءهم . . .

جد العساكر الخمسة في البحث عنه حتى عثروا عليه . نائما «مكرفسا» جسمه حتى يسعه ظل الحائط القصير . واخذوا يقتربون منه بحرص وحذر كبيرين وكأنهم يقتربون من قنبلة وشيكة الأنفجار . حتى أحاطوا به .

عندما هب المسكين من نومه مذعورا ، كان كل امل في نجاته قد ضاع وتبخر . فالحائط خلفه ، وخمسة رجال قساة يرتسم الشر على ملامحهم أمامه ، وعلى كل جانب من يمينه ويساره . ورغم كل ذلك فقد حاول المسكين أن يفر ، وأن ينجو بنفسه من هذا الشر المستطير ، والبلاء الواقع ، ولكن هيهات .

كان المسكين يعمل فكره بسرعة . ويتلفت عله يجد طريقا الى الحرية ، عندما هبطت هراوة غليظة على رأسه ، أفقدته توازنه ، وابهتت المناظر امام عينيه . ثم اخذت هذه المناظر ترقص وتقفز أمامه بجنون . وتضخمت أجسام العساكر الخمسة وطالت ، حتى اصبحوا مردة عمالقة تناطح رؤوسهم السحاب .

إذن لامخرج ولانجاة . . . والتفت سلسلة من الحديد قاسية حول عنقه ، واخذت تضيق وتضيق حتى كادت تكتم انفاسه . فيحاول محاولة يائسة أن

يقاوم ، وأن يحتج ، ولكن ركلة قاسية فى بطنه تعيد اليه صوابه فيستسلم ويسحبونه خلفهم وهم يتندرون ويضحكون .

يدخل على مكتبى خمسة رجال ضخام الأجسام ، مفتولى العضلات . تطل القسوة والوحشية من اعينهم . يسحبون خلفهم كلبا أعجف يتعثر فى مشيته ، ويلهث بصوت مسموع ، تخاله حشرجة . ولايكاد يحتفظ بتوازنه تعبا وارهاقا . وبرأسه جرح كبير ينزف دماء حمراء قانية . وتدلى لسانه يتساقط منه اللعاب مخلوطا بالدم .

أخذ الكلب يرتجف خوفا ورعبا . ومن آن لآخر يرفع عينيه الى فاذا بنظرات يمتزج فيها الخوف والفزع ، والذلة والمهانة . والرجاء والتوسل . يمتزج في نظراته كل ذلك أمتزاجا غريبا يرسل قشعريرة فى بدني . بينما راح الرجال الخمسة يحكون كيف وجدوه ، وكيف حاصروه . حتى القوا القبض عليه . ويتنافسون فى الأيضاح والتفسير حتى تشعر انهم يتجاذبون البطولة بينهم . وكل منهم يدعى أنه لولاه لما كان الكلب هنا الآن .

أسكتهم باشارة من يدى وطلبت منهم أولا أن يرخوا السلسلةويخففوا ضغطها على رقبة الكلب الذى كاد يختنق . واخذت اسألهم كيف وجدوه . . فأجمعوا أنهم وجدوه نائما ، وأكدوا لى ذلك مما جعلنى أشك فى اصابة الكلب بالسعر ،فإن المسعور لاينام. وقمت لتوى وأحضرت بعض الماء وقدمته له . فإذا به يشرب بشراهة وكأنه لم يذق الماء منذ أسابيع. مما زاد يقينى أنه ليس مصابا بالسعر فإن من أبرز علامات السعر أن لايقرب المصاب به الماء . وقمت بفحصه بدقة فلم أر أى عرض من أعراض المرض .

فى هـذه الحالات التى أرى أن الكلب ليس مصـابا بالسـعر ولـكن على إكمال الاجراءات ، وأهـمها حفظه تحت المراقبة لمدة عشرة أيام قبل إعطاء قـرارى النهائي . لاأصر أن يكون الكلب تحت مراقبتى الشخصية طوال هذه المـدة . وإنما أكتفى بأن يكتب لى صاحب الكلب تعهدا بأن يحتفظ بالكلب داخل منزله ، مربوطا بعيدا عن كل الناس والحيوان هذه المـدة . وأن يحضره الىّ اذا مالاحظ أى تغيير فى سلوكه أو فى حالة موته ، واذا انقضت هذه المدة دون أن يحدث له شئ عليه أن يحضره الى للكشف النهائي وأعطاء القـرار .

وفى هذه الحالة بالذات لم أشك أن الكلب سـليم من السعر . ورأيت أنه يمكننى أن أكتفى بهذا التعهد مرتاح البال ولذلك طلبت صاحبه ، فحضر .

رجل قصير يلبس قميصا من الكاكى وعلى كتفه بالطـو صوف ثقيل ، ويحمل على رأسه عمامة ضخمة يعجب المرء كيف تتحملها رأسه . وفى يمينه عصا غليظة يتوكأ عليها . ووقف امامى يرتجف ويهتز شاربه الكث فى عصبية ظاهرة . وحين جاء ذكر التعهـد إذا به ينتفض فجأة كمن به مس ويصيح رافضا .

ــ لا لا جنابك . أنا فى حياتي ماحصل جيت جنب البوليس ولا البوليس جا جنبى . أنا طول حياتي راجل مسـالم ، ما أدور المشاكل وخصوصا مع الحاكومة . والكلب ده كان كويس ومابيهاجم زول ولكن كان ابتدأ يسبب لى مشاكل أنا مادايره من اليوم .

وخرج مسرعا وكأن فى أعقابه الشياطين ، وهكذا تخلى عن صاحبنا آخر أمل كان له . وأقرب صديق اليه ، صديق طالما دافع عنه ، وضحى

في سبيله بكل شئ . واذا تطلبت حماية هذا السيد أن يضحى الكلب بحياته في سبيلها لما تردد لحظة في أن يجود بها . تخلى عنه الجميع ، بل صار الكل له اعداء يتمنون له الموت والفناء . أصبح المسكين وحيدا في هذه الدنيا التي لاتشفق ولاتلين ولاترحم .

حبسته في حجرة مظلمة للمدة القانونية وتأكدت بعدها أنه غير مصاب بالسعر . وأردت أن اسلمه لصاحبه ولكنه رفض بعناد وأصرار أن تكون له أية صلة بالكلب في المستقبل ، بحجة أنه رجل مسكين ، ولا يريد المشاكل .

لم يكن امامي إلا أن أريح المسكين من عناء الحياة ، فحقنته بجرعة مضاعفة من البنج ، فنام نوما اخذ يعمق حتى اسلمه الى وادى الفناء .

وزيادة في الاحتياط ارسلت مخه الى المعمل في الخرطوم . وجاءت النتيجة المتوقعة « لايوجد سعر » .

طبعا ! ولكنه بائس لم يشعر به أحد طول حياته . وتجاهله الجميع باحتقار . ويوم رفع مخلبه أو كشر عن انيابه مرة واحدة ، يحتج فيها على الظلم ، إذا بجهاز ضخم معقد يتحرك كله ليسحقه ويطحنه ويفنيه .

إنسان الغابة

اليـوم أحـد أيام اجازتي السنوية . . . واجدني في عاصمة بلـد مجاور جئت اليه للترويح عن النفس، ورؤية أشياء وأماكن طالما تاقت نفسى الى رؤيتها . . . .

إننى الآن فى طريقى الى حديقة الحيـوان . . .

ما أغـرب الإنسـان وما أعجبه ! رجل مثلى كتب عليه أن يقضى حياته كلها فى صحبة الحيوان ، يجد نفسه تشتاق اول ما تشتاق الى رؤية حديقة الحيوان . . ! لماذا لم أختر احد المعالم الكثيرة التى تزخر بها هذه المدينة الكبيرة الرائعة . . ؟ لماذا أشتاق الى صحبة الحيوانات وعهدى بتلك الصحبة قريب لايتعدى الايام وسرعان ما سأعود اليها ثانية بعـد أيام ؟ أيكون هذا الشـوق عائدا الى أن لروث الحيوان رائحة خاصة يدمن الإنسـان عليها ، ولايرضى عن شمها بديلا كما قال احد زملائي الظرفاء ؟ .

أم ياترى يرجع السبب الى أن لصحبة الحيوان لمدة طويلة ومراقبتها وهى سليمة ومتعافية ثم مراقبتها وهى مريضة تتألم يخلق جوا من التفاهم ، ويبعث ودا دفينا لهذه الحيوانات ؟ .

أم يكون مرجع هذا الشـوق لأني دائمـا أنظر الى الحيوان على أنه اقرب الى الطبيعة والصق بها منا ؟ ! وأنه لم تفسـده أو تبعـده عن هذه الطبيعة الطليقة هذه التلال والجبال ؛ من المعتقدات والتقاليد التى نرزح تحتها نحن البشر عـامة والمتمدنين خاصة ؟ .

إننى فى الواقع حين أحتار فى تفسير سلوك شخص ما أو فهم دوافعه لهذا السلوك لاأفعل أكثر من تجريده من ثيابه –فى خيالى طبعا– وتجريده من كل ماورث من تقاليد وعادات وآداب سلوك . كما اجرده من الخوف من العقاب أو الطمع فى ثواب . وربما زدت على ذلك بوضعه – فى خيالى هذه المرة ايضا – على أربع ، فإذا بهذا الرجل المتأنق فى لباسه وكلامه وسلوكه ، وإذا بهذا الرجل الذى كان حصيلة آلاف السنين من التأديب والتهذيب . . حيوان لايختلف عن الحيوانات الأخرى فى قليل أو كثير .

إن هذه القوانين وهذه التقاليد وتلك التعاليم كلها والتى يخضع لها بنى الإنسان ماهى الاهذه الأقفاص التى أرى الحيوانات حبيسة فيها . . أو تلك القيود التى نقيدها بها . . . أو بمثابة الطلاء الرقيق الذى تطلى به جدارا من الطين ليبدو وكأنه من المرمر أو الرخام المصقول !

دع هذا القفص يفتح أو عمدانه تتقوض . . .

دع هذا القيد ينكسر . . .

أو دع هذا الطلاء يتساقط . . .

وهنا يظهر معدن الأنسان واضحا جليا ، فإذا به وحش طليق واذا به جدار من طين . . .

هل رأيت رجلا أعماه الغضب . . . . ؟

هل رأيت رجلا فاقد الوعى من سكر أو مرض . . . ؟

هل رأيت رجلا وقد سيطرت عليه رغبة عنيفة أو شهوة عارمة لاتقاوم . . . ؟

هل راقبت نفسك وقد خلوت اليها وآمنت انك بمفردك ولا أحد يراقبك أو يرصد أفعالك . . . ؟

بل هل تذكر أحلامك وتخيلاتك وقد أنطلقت من كل عقال فإذا بك قوى لاحدود لقوتك . وأذا برغبات تخجل من ذكرها حتى الى اقرب الناس اليك تتحقق . . . واذا بالمرأة التى تشتهيها ، بجانبك تداعبك وتلاعبك وتنال منها كل ماتتمناه . . . . واذا باعدائك الذين تنافقهم فى الواقع لأن قهرهم فوق طاقتك ، اذا بهؤلاء الأعداء تراهم أمامك صاغرين ، وأنت تجندلهم بسيفك ، أو ترديهم برصاصك دون ان تأخذك بهم رحمة أو رأفة . .

فى كل هذه المواقف ترى معدن الإنسان . ويبرز الى الوجود ذلك الوحش الذى كان إنسانا . . . الوحش القابع فى أعماق الإنسان والذى حاولت الأديان جميعها . والتقاليد والقوانين كلها ، أن تقيده وتكتفه بسلاسل من حديد ولكن هيهات . . . فالرقيب ربما غفل . . . والقفص ربما أنفتح . . . والقيد ربما انكسر . . . . وينطلق الحيوان ويعيث فى الأرض فسادا . فيسرق ويقتل . ويشبع جميع شهواته . . . وبعد كل حادثة من مثل هذه الحوادث التى لايكاد يخلو منها يوم واحد ويتدخل القانون ليرجع هذا الإنسان المارق الى حظيرة المجتمع ، نجد شخصا يقف فى قفص الإتهام ذليلا نادما مستغفرا . مستعطفا . . . ويصيح محامى الدفاع مشيرا اليه :

— أنظروا أيها السادة الى هذا الوجه البرئ الطيب . . . وأنظروا الى تلك اللحية المهيبة التى تدل على التقوى ومخافة الله . . . وهل يمكن عقلا أيها السادة أن يقوم صاحب هذا الوجه وتلك اللحية بالاعتداء على طفل فى

العاشرة ، ثم نخنقه . كما يريد أن يقنعنا الأتهام . . .

وما كان أحرى بمحامى الدفاع أن يقول بدل ماقاله :

ـ حرام أيها السادة أن تحاكموا هذا الرجل فإنه ليس نفس الشخص الذى قام بارتكاب الجريمة الشنعاء . أن المجرم شخص آخر لايمت الى هذا المتهم بصلة . لقد كان هذا الرجل وقتها غير الشخص الذى ترونه ماثلا امامكم الآن . . . أن مرتكب الجريمة الشنعاء هو وحش كامن فى دخيلة هذ الأنسان . فأنطلق يوم الحادث وخرج من طاعة سيده ففعل مافعل . أما هذ الإنسان الذى ترونه أمامكم الآن فى ذلك القفص ، يتقاذفه اليأس ويتجاذبه الأمل ويعصر قلبه الندم ، فإنه برئ من ذنب ذلك الوحش الكامن فيه . والذى خرج من سيطرته يوما فأجرم وقتل . . .

ماكان احرى بمحامى الدفاع أن يشير بأصبعه إلى القاضى ويقول . . .

ـ هذا القاضى الذى يجلس هادئا رزينا تحفه وقار العدالة . هذا القاضى الذى يضرب به المثل فى الإستقامة والتدين . . . تخيلوا أيها السادة أن هذا القاضى بخصاله الحميدة والتى اسلفت ذكرها كان لابوين من أسرة رقيقة الحال . ولم يجد الظروف الملائمة ، أو لم يمنح من الذكاء مايكفيه أن يمر مراحل التعليم المختلفة حتى ينتهى بالتخرج من كلية الحقوق ، لكى يصل الى هذه المنصة المهيبة المرهوبة التى يجلس عليها الآن . . . تخيلوا أيها السادة هذا القاضى الجليل قد عاش الحياة التعسة فقاسى نفس الظروف القاهرة التى قاساها المتهم الماثل أمامه ، تخيلوا هذا القاضى الوقور وهو يسير حافى القدمين فى الأزقة . . تخيلوه وقد تساقطت منه

دقائق الطلاء التى وضعها على حقيقته المجتمع والتعليم والظروف . . . تخيلوه وقد أصبح كذلك، ثم أذهبت بما بقى من عقـــله ثورة سكر أو غضب أو شهوة . . .

ماذا كان يفعل مولانا فى مثل هذه الظروف . . . إنه لم يكن يفعل اقل مما فعله المتهم . . . .

فمن إذن أحق بالمحاكمة والإدانة ؟ المتهم أم الظروف التى حكمت عليه أن يكون متهما . ؟

يا الهى ! مالى شطحت بعيدا وأخذت أجوب أودية لا ادرى الى أين تقودني تاركا العنان لخيالى. انني لست الآن هنا وفى هذه الحديقة الالأ روح عن نفسى ولكى أطرد منها مثل هذه الأفكار .

ثم . واكتشفت أننى كنت أمر بأقفاص ضمت حيوانات مختلفة . أنظر اليها بعين لاترى شيئا . وذهن شارد مشغول بمافيه من افكار تصطرع وتصطخب . . . .

وأعادتنى الى واقعى كف تمتد الىّ من أحد الأقفاص متسولة . . كف لاتكاد تختلف عن كفى وكفك فى شئ يذكر . ونظرت الى اللوحة المثبتة فى أعلى القفص فاذا مكتوب فيها (انسان الغابة) . . .

أذن فأنت انسان الغابة ، والذى يقول عنك العلماء أنك اقرب مرتبة الى الإنسان من أنواع القرود الأخرى . . .

إذن انت الذى يقول عنك « دارون » انك من ابناء عمومتنا . .

مرحبا يا ابن العم . . أنني شخصيا لاأجد غضاضة فى أن تكون من أبناء اعمامى القدماء . . . ولست أرى مهانة أبدا أن تكون الإنسانية عضوا فى اسرة كبيرة تضم كل الأحياء بما فى ذلك الباكتيريا . والحشرات . ولا أرى غضاضة بالمرة فى أن يكون لنا تاريخ مشترك ، وأن يكون ابونا جميعا البحر . وإن قال لى احد بأننى لازلت احمل فى جسدى شيئا من ماء ذلك البحر او أن خلايا جسمى لازالت تسبح فى مائه المالح ولاتطيق العيش بدونه وأن دمائي المالحة وعرقى ودموعى كلها تشير الى ذلك الرحم اللامحدود . والذى وضع الله فيه الحيـــاة فإني لا أشعر بمرارة ولامهانة ولاتحقير . بل أني أشعر بفخر عظيم لهذا التاريخ الضارب فى أعماق الأبد الذى عشته . وسأشعر بالفخر بذلك المستقبل الرائع الضارب فى آفاق الازل الذى سأعيشه . سأرى فى ذلك الخلود الحق الذى منحنا أياه الخالق القدير .

اليس هذا الامتزاج والإندماج فيما حولنا من الحياة والاحياء خير من أن تحاول الإنسانية أن تدفن رأسها فى الرمال . وتقف بمعزل عما حولها شامخة الأنف فى زهو كاذب وكبرياء فارغ . . . !

نعم يا ابن العم اننى لا أشعر بغضاضة فى أن تكون من أبناء عمومتى . ولكن هل تشعر أنت بأى فخر لكوني من أبناء عمومتك . . . ؟

وقفت اتأمل هذا الأخ الذى فرقت بيننا مئات الالوف من السنين . أنه لايختلف عنا من ناحية التركيب الابيروز هنا واغورار هناك وكان يقف منتصبا على رجليه ممسكا بأحد قضبان قفصه وقد مال قليلا الى الأمام فأصبح قريب الشبه جدا بأمرأة عجوز متكئة على عصاها . وتذكرت أن العلماء قد اكتشفوا أن الدماء التى تجرى فى عروقه تكاد تكون من نفس

المجموعة ومطابقة تماما لتلك التى تجرى فى عروق الإنسان . ولكن ماهالنى منه حقا هو تلك التعبيرات التى كانت ارتسمت على وجهه وذلك البريق الذى كان يظهر فى عينيه، فهو حين يستجدى الرواد تجد وجهه قد اكتسى بتعبير المذلة والخنوع والاستعطاف، وعيونه تطلب الرحمة وتلين القلوب ولايبقى إلا أن ينطلق لسانه ليقول .

— لله يا محسنين .

فإذا نال من أحد الرواد شيئا ، تهلل وجهه سرورا وأنطلقت اساريره حبورا ، واسرع يقتسمه مع زوجته القابعة خلفه ترضع طفلا . أما اذا مر أحدهم دون أن يلتفت أليه . متجاهلا كفه الممدودة ، ترى خيبة الرجاء والأسى والازدراء كلها تختلط وتنطلق بها تعابير وجهه وعينيه .

اليس وراء هذه التعبيرات الناطقة وهذا البريق الذى يتألق فى عينيه عقلا يفكر ويعرف الخطأ والصواب ؟ اليس وراء كل ذلك قلبا يشعر بالعواطف المختلفة المتضاربة ؟ واليس وراءه ذكاء ؟ ربما لم يصل الى رتبة ذكاء الإنسان ولكنه جذوة فى طريقها الى الأشعاع . . .

ايه يا ابن العم . . . كيف تجد حياتك بيننا وكيف ترى مدنيتنا وهى تمر بين يديك وأمام ناظريك يوما بعد يوم . . . ؟

هل ترى فى مناظرنا وعاداتنا وأخلاقنا مسلاة لك كما نرى نحن فيك وفيما تقوم به من حركات . . . ؟ !

الاترى أنك أسعد حظا منا لأنك تتفرج على الالآف دون أن تتحرك من مكانك ، بينما تتكبد هذه الالآف المشاق لتلقى نظرة عليك . . ؟

ومارأيك فيما فعلناه بأنفسنا بعد أن افترقنا عنك ؟ ! .

وهل علمت بخبر المدنيات العظيمة التى قامت وأندثرت ولكنها خلفت تراثا توارثته أجيالنا جيلا بعد جيل . . . ؟ وما رأيك فى المدنية الحديثة التى نعيشها اليوم بطرق مواصلاتها الحديثة التى كان آخرها الأقمار الصناعية ؟ وبهذه الاكوام اللامحدودة من المعرفة بالطبيعة والحياة التى حولنا والتى نحن ماضون لزيادتها واكتشاف الأنفاق ودروب المجهول المظلمة لنضيئها بسراج العقل الذى منحنا اياه خالقنا حتى لايكون هناك مجهول . . ؟

و . . . و . . .

كنت مندفعا اعدد الانجازات العظيمة التى أستطاع أن يقوم بها البشر لولا حركة من يد الذى اخاطبه بفكرى ؛ ربما جاء بها عفوا ولكنه كان كمن يستوقفنى عن الأسترسال وكأني به يقول :

— إني لألمس فى طيات كلامك أنك تياه فخور بما تسميه مدنية الإنسان ولكن مهلا . . . لقد أتاح لى سجنى هذا الذى سجنتموني فيه ظلما وعدوان الوقت الطويل ، كما اتاح لى وضعى الظروف الملائمة لأ فكر ، واعيد التفكير فيما تسميه بمدنيتكم . ماذا فعلتم بالله خلال هذه المئات من ألوف السنين التى فرقت بيننا ؟ هل استطعتم التخلص من الرغبات الثلاث التى تتحكم فى سلوك اى عضو حى مهما كانت الدرجة التى يقف عليها من سلم التطور والأرتقاء ؟ هل تخلصتم من حب النفس والرغبة فى الدفاع عنها والتمسك بالحياة . ؟ هل تخلصتم من شهوة الجنس أو طلب الطعام ؟ إن هذه الرغبات الثلاث لازالت وستظل تتحكم فيكم وفى حياتكم كما تتحكم فى اصغر المخلوقات الحية واحقرها شأنا .

إن كل الذى فعلتموه أنكم أمسكتم بهذه الرغبات واخذتم تعقدونها . ويزيد كل جيل تعقيدها قبل أن يسلمها للجيل الذى يليه حتى ظننتم أن هذا التعقيد هو الاصل بينما الحقيقة ليست كذلك .

خذ أى عمل من اعمالكم ، أو دافع من دوافعكم ، بالغا هذا العمل أو الدافع من الصغر أو الكبر . جليلا كان هذا العمل أو حقيرا . خذ مثل هذا الدافع أو العمل وحلله وغربله فلن تخرج فى النهاية من احد هذه الاسس الثلاثة . وستكتشف أن المدنية لاتعرف شيئا سوى الخروج من البساطة للتعقيد وستكتشف أن الرجل المتمدن يقاتل ويناضل من اجل اشياء زائفة لاقيمة لها ولاتساوى فى الحقيقة شيئا . . . ماذا تعنى مثلا الشهرة وانت مهما اشتهرت فمآلك الى النسيان ؟ . . . وماهو المجد وما معنى الخلود . . . ؟ ماقيمة الغنى والجاه ؟ . . . ولماذا تقتتلون ويفنى بعضكم بعضا من اجل هذه العملات الزائفة التى لاتسمن ولاتغنى من جوع . . . ؟

المرأة الحلوب

وجدتها قابعة فى حظيرتها تجتر طعامها فى كسل وتراخ لذيذين . وعيناها مغمضتان نصف أغماضة وكأنها على وشك الالقاء بوجودها فى بحر السبات العميق . ووقفت أمامها أتأملها . ولم تزد هى عن ألقاء نظرة مسترخية أثقلها النعاس على شخصى ثم عادت الى ماكانت فيه من التهويم والأجترار ، وكأنها لم تحفل بي ولم تعرني أية أهمية . أو كأنها الغت وجودى الغاء كاملا . ربما تكون هذه المعاملة غير الكريمة من بقرة حقيرة قد أغاظتنى بعض الغيظ لكنى أستطعت السيطرة على مشاعرى . ولم يظهر على وجهى أى أثر ممايعتمل فى صدرى . وتقدمت اليها أجسها وافحصها لأ تأكد من أن الانتفاخ الذى كانت تعاني منه قبل يومين قد زال تماما . ولكنى تخيلتها تنظر الى بأحتقار وسخرية وكأنها تقول :

– أحقا جئت تطمئن على صحتى أم لتتأكد أني سوف أستطيع القيام بأعمالى الشاقة غدا . . . ؟

أصحتى التى تهمك أم كمية اللبن التى يفرزها ضرعى . . . ؟

انطلق خيالى معترفا ومدافعا يقول :

– إن الذى يهمنى بالطبع هو صحتك أولا وكمية اللبن ثانيا . . .

وترددت قليلا قبل أن اضيف :

– وسمعتى ثالثا ، إذ أننى لو فشلت فى علاجك لاعتبرت فاشلا ، كطبيب بيطرى . أو تعلمين ماذا يحدث لى فى تلك الحالة . ؟

رفعت البقـرة رأسها متسائلة وقد ظهر الأ هتمام علـى ملامحها وفى عينيها النجلاوين ، وكأنها تسألنى عمـا يمكن حدوثه لو فشـلت ، فابتسمت ابتسامة ألم ومرارة وأنا اقـول :

ــ اتعـطل من عمـلى . . . اتدرين مامعنى ذلك . . . ؟

ولما رأيت أنها لاتدرى استطردت قائـلا .

ــ معناه أن اكون زبونا مستديما لما نسـميه بالقهاوى . . . معناه أن يضيع عمـرى فى التسكع والضياع . . . معناه أن يطحننى الأ سى ، ويسحقنى الفقر والفاقة . . . . والفقر إن كنت لاتعلمين هـو أننا فى بعض الأ حيان لانجـد حتى مايقـوم مقام التبن عندكم ،ولانجد حظيرة تأوينا مثل حظيرتك هذه . . .

رفعت البقـرة رأسها وهزته ، تنفض عنه النعاس ، وانتصبت اذناها بعـد أن كانت مسترخية . ونظرت الى نظرة فهمت منها أن مثل هذه الأ شياء لم تكن لتخطر لها على بال . . . وأن الإنسـان ذلك المخلوق الجبار الرهيب أخذ يهبط من عليائه حتى وصل إلى مستوى البقر بل أنه استمر فى الهبوط . .

وواصل خيالى حديثه الى البقرة قائـلا وكأنه تذكر شيئا ،

ــ أو تعلمين أن بعض أناث البشر يعشن من أثدائهن كما تعيشين انت من ضرعك ؟ . .

وظهرت الدهشة على البقـرة وهى تقـول ـ :

ــ اتقصد أنهن يبعن لبنهن مقـابل قـوتهن ومايقيم أودهـن .

فقلت :

ــ هذا بالضبط ما أعنى . . . ونسميهن المرضعات . وكل صفات المرضعة الجيدة هى نفس صفات البقرة الجيدة . صحة قوية . وعافية كاملة ولبن غزير . وخنوع وتسليم بواقع الأمور . . . وقد يحدث أحيانا كثيرة أن يكون طفل المرضعة يصرخ ويتضور من الجوع . بينما تحمل هى ثديين يكادان ينفجران مما امتلا به من اللبن . تذهب بهما لارضاع طفل سيدتها الذى حانت ساعة ارضاعه . ويجب أن يشبع هذا الطفل السيد قبل أن تعود المرضعة بما تبقى فى ثديها لطفلها . . .

وغيرت البقرة جلستها وكأنها تتأهب لحديث شيق طويل وقالت .

ــ ولكن مابال أم الطفل السيد لاترضع طفلها ؟ هل هناك من اناثكم من تلد ولايفرز ثديها لبنا ؟

فأجبت وأنا اكتم ضحكة كادت تفلت منى لجهل البقرة بأحوال الناس .

ــ لا . . . لا . . . ولكن مثل هذه الأم تخاف أن يترهل نهداها ويفقدان بذلك كثيرا من جمالهما وقوتهما على الأغراء .

فقالت البقرة متعجبة :

ــ ولكن هذه أول مرة فى حياتي أسمع فيها أن للضروع أو ما أسميته بالنهود وظيفة غير الوظيفة الطبيعية وهى أدرار اللبن و . . .

فقلت مقاطعا . .

ــ إننا معشر البشر قد تطورنا تطورا بعيدا بعد أن تركنا جواركم فى الغابة . وأصبح الجنس بالنسبة الينا ليس غايته الأنجاب . وأستمرار النوع

البشرى ، بل اصبح الجنس يرغب فيه من أجل اللذة الخالصة . أى أن اللذة الجنسية اصبحت اليوم عندنا غاية فى ذاتها ، وليست وسيلة لغاية سامية.

ووجدت أن حديثى هذا أبعد مايكون من فهم البقرة الجاهلة وأنها تريدني أن أعود الى قصة المرضعة اذ سألتنى فجأة :

— إذا كان الأمر كما قلت فما بال المرضعة لاتخشى على نهديها من ضياع جمالهما كما تفعل أم الطفل السيد ؟

فاجبتها وانا احاول ان أبسط المسألة ما أستطعت :

— انك تعطينا اللبن مقابل هذا البرسيم والتبن الذى أمامك ، والحظيرة التى تظلك . ويوم نفقد نحن البشر الأمل فى لبنك والأستفادة منك تفقدين أنت الأمل فى حياتك . . . وهذه المرضعة مثلك تماما ، لو حافظت على جمالها أو كرامتها وأبت أرضاع الطفل السيد ربما فقدت حياتها وحياة طفلها من الجوع والعرى .

فقالت والدهشة البالغة تكاد تطفر من عينيها :

— أبين البشر من يموت جوعا لو لم يتخل عن انسانيته وكرامته . . ؟

فقلت وقلبى يكاد يتمزق آسى وحسرة :

— لحسن حظك أنك لاتعرفين الكثير عن المجتمع البشرى . إنه مجتمع تجتاحه الأنانية الى أبعد الحدود . إن هذا المجتمع فى حقيقته يطبق قانون الغابة أو قانون البحر ، وهو أن القوى ياكل الضعيف دون رحمة أو شفقة . ولكنهم يعطون ذلك أسماء مختلفة براقة ، حتى يخدعوا أنفسهم ويخدعوا البسطاء . فهذا الظلم الواضح يسمونه تارة حرية المنافسة وطورا حرية رأس

المال الخاص ، وتارة اخرى البقاء للأصلح وهكذا . كما أنهم يغطون انحرافاتهم بمختلف الأسماء العلمية الطويلة وينتحلون الأسباب لهذه الأنحرافات ويرجعونها الى اصولها ، وما الى ذلك من التبريرات الواهية . .

واستطردت قائلا :

ـ اتعلمين أن تلك المرأة التى حدثتك عنها وقلت لك أنها تتاجر بلبنها لتأكل وتطعم وليدها . . . اتعلمين أن هذه المرأة هى أحسن حظا وأشرف مهنة من نساء أخريات اجبرتهن الظروف الى درك اكثر انحطاطا . . ؟

فتاملتنى البقرة مليا وهى تهز رأسها وكأنها تقول .

ـ امعن فى حديثك فإنه يفتح لى آفاقا جديدة ويعرفنى بالبشر أكثر وأكثر.

فمضيت فى حديثى ساهما .

ـ تلك المرأة الأسوأ حظا هى التى تضطر الى بيع جسدها مقابل قروش معدودة . . . لا . . لا . . تندهشى . أننى لا اعنى انها تبيع جسدها ولحمها للجزار أو شيئا من هذا القبيل بل أريد أنها تبيع جسدها لطلاب اللذة أو إن شئت الدقة أنها تؤجر جسدها لهم .

ابحرت البقرة بفكرها بعيدا وهى تتخيل وتتأمل هذه الصورة العجيبة. ولو استطاعت الى الضحك سبيلا لقهقهت لهذه المهزلة ولما توقفت من الضحك حتى يعاودها المغص ويعاودها الانتفاخ . . ولكنها لاتستطيع الضحك وهذا لحسن حظنا وانما بدت كالمترددة قبل أن تقول .

ـ ولكن ذلك مستحيل الحدوث عندنا معشر البقر فإن لنا مواقيت معينة للإلتقاء، ويكون ذلك لغرض واحد هو تلقيح البويضة التى تكون حينذاك

على اهمية مستوى الاخصاب فيتكون المخلوق الجديد .

فقلت مقاطعا :ـ

ـ نعم نعم هذه هي قوانين أمنا الطبيعة . ولكن الم اقل لك أن الجنس البشرى تطور وأبعد جدا فى هذا التطور . . . ؟

وتخيلت أن ابتسامة ساخرة قد رفت على مشفريها وهى تنهض واقفة . . وهزت اذنها لتطرد ذبابة اخذت تضايقها ثم تمطت قبل أن تقول :

ـ ولكن هلا حدثتنى باى حق تستعبدوننا وأنتم فيما علمت اخيرا لستم خيرا منا كثيرا ؟

فقلت :

ـ إننا نستعبدكم لاننا أذكى منكم . . وعلى كل كيف تسمينه استعبادا أو استغلالا ولاتسمينه اجتماعا لفائدة مشتركة ؟ . . أنت فى حاجة الى الحماية والعلف ونحن فى حاجة الى لبنك وقوة عضلاتك . . .

ولكنى توقفت فجأة والدماء تندفع الى وجهى لخجل من نفسى ومما أقول . فقد شعرت أننى أخذت أبرر شيئا انا غير مقتنع به . وشعرت أننى أحاول أن البس الباطل ثوب الحق كما يفعل الإنسان دائما . حين يريد أن ينحنى المنطق ويتشكل ليخدم اغراضه .

ووجدت أنه من الأسلم أن اغير مجرى الحديث فقلت كالمازح .

ـ على كل لماذا تشكين الرق وتتذمرين من العبودية . . ؟ الاتعلمين أن بنى الإنسان يستعبدون بعضهم البعض ؟ . . إذن فاعلمى أنه فى بلد ما من

بلاد البشر ، محظور على بعض الفئات من السير فى نفس الرصيف الذى تسير فيه فئات اخرى . وإن الفرد من هذه الفئات المستضعفة حين يخرج من بيته لايضمن العودة اليه . إذ أن من المعتاد جدا أن يفقد احد افراد الفئة المستبدة أعصابه فيطلق عليه النار فى الشارع ثم يواصل سيره وكأن شيئا لم يكن . وهل أحدثك عن بلاد أخرى جاءت فيها الفئات المستبدة فسرقت وأغتصبت من اهالى البلد الأصليين كل شئ له قيمة . ومنعوهم أى حق يضعهم فى مصاف الإنسانية . وحظروا عليهم التعلم والتقدم . واقتصروهم على أحط الأعمال وأشقها وأقذرها . أعلمى أن الفئات المستضعفة فى تلك البلاد لاتجد من العناية والرحمة ماتجدين . . .

فقالت البقرة التى اصبحت الآن فيلسوفة لايشق لها غبار :

— إذا كنتم استعبدتمونا لانكم اذكى منا فلابد أن تكون الفئة المستبدة فى البلاد التى ذكرت أذكى من الفئة الأخرى ؟

فقلت معترضا :

— ليت الأمر كذلك . ولكن هذه الفئة المستضعفة هى بشر سوى لافرق بينه وبين المستبدين إلافى لون البشرة . أما الذكاء فإنهم إن وجدوا الفرصة تساووا مع الآخرين إن لم يتفوقوا عليهم .

فقاطعتنى البقرة قائلة :

— ماذا تعنى بلون البشرة ؟

فقلت :

— اى أننا ننقسم الى سود وبيض، وفى رأى البيض أن السود هم فى درجة أقرب الى الحيوان . وهم لذلك لايستحقون خيرات بلادهم . ويجب

أن يستعبدوا ويستغلوا . وإن كانت هناك طريقة لأ بادتهم سرا دون أن يحس بها احد فلابأس .

فقالت البقرة متحيرة

ــ أتقصد أن لون الجلد له كل هذه الأ همية فى المجتمع البشرى . . ؟ ! أننى سوداء كما ترى ولكنى لم اشعر قط باى اهانة أو أذلال من صاحباتي البيض أو الحمر . الحقيقة اننى لم أشعر بهذا الفرق ولم اعطه أى أعتبار الابعد حديثك هذا . وكيف يكون لوني الاسود منقصة وأنا لم اختره ؟ وكيف يكون عيبا مادام لبنى أبيض كألبان البقرات ذوات الالوان الفاقعة

فقلت بلهجة لاتخلو من زهو :

ــ ولكن لاتنس أننا بشر وأنتم بقر .

فقالت في رثاء :

ــ ولذلك كم أرثي لكم معشر البشر . كنت دائما أنظر الى الأ نسان كنصف إله ، يدب على الارض . وأنه لاحدود لقوته وذكائه . ولكنى الآ ن اكتشفت أن البشر أقل درجة من البقر .

فصحت غاضبا :

ــ اقل من البقر ! إن هذا كثير ولن اسمح لك أن تقولى عنا ذلك .

فهزت رأسها بوقار وقالت :

ــ نعم انكم احط من البقر لأ ن البقر لايملك مصيره وهو لذلك مجبور أن يرضى ويرضخ لواقع الأ مور . ولكن الأ نسان يملك مصيره . ومستقبله فى يده . ورغم ذلك يدع الآ خرين يستعبدونه ويذلونه . . .

شيتا وأنشتاين

كنت يوما أسير حاملا على ظهري كيسا من التبن لاضعه امام بقرتنا تتعشى به . وهبت الرياح فجأة فطارت بعض هذا التبن الى أنفي وفمي ، فكرهت ذلك ، وتقززت منه ، وخفت على حلقي من شفراته الحادة . وكانت هذه الحادثة البسيطة التي كثيرا ماتحدث ولايهتم بها احد بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير . فإذا بي أثور ثـــورة مضرية . وإذا بدمائي تفور وتغلي . وإذا بعقلي يستيقظ ويهب من نومه منتفضا. وتأخذ الافكار الخانقة الثائرة تصطخب فيه وتمـور . كل ذلك ولم يظهر على وجهي شئ مما أعانيه في دخيلتي . حتى خطوتي لم تفقد رتابتها واتزانها .

يومها كنت مراهقا شديد الحساسية. منطلقا وراء الأحلام والأوهام وكأن الله بعثني لأحمل هموم الدنيا كلها . ومشاكل الناس كلهم على رأسي . ولا اكتفي بذلك بل أجهد عقلي لأضع الطرق التي ستخلصنا – في ظني – من هذه الهموم . وتحل المشكلات والمعضلات . أخذت الافكار تصول وتجول في رأسي وأخذت اتساءل لماذا كان نصيب البقرة هذا التبن الخشن الجاف ، ونصيبنا نحن البشر الحب المطحون اللذيذ والغني بمواده الغذائية ؟ ! . . . . .

لماذا نفوز نحن بالثمرة ولاتفوز هي الابالنفايات ؟ . . .

نعم إن لها لسانا خشنا كالمبرد ، وأسنانا قوية . ومعدة ضخمة تختزن فيها ماتأكل حتى يتخمر ويكون صالحـــا للهضم والامتصاص . أو باختصار أن تكوينها يناسب ماتأكل. وربما كان مانعطيه أياها هو أنسب شئ

لهذا التكوين . ولكنى رفضت كل ذلك بعنف . وبهزة عنيفة من رأسى كادت تسقط طاقيتى . واصفا كل ذلك بأنه تبرير مكشوف لتخدير ضمائرنا اذ أننى لم أستطع أن انكر أن البقرة تفضل الحبوب أكثر الف مرة من التبن . ذلك إن وجدت الى تلك الحبوب سبيلا . وتذكرت كيف كانت الحيوانات ترفس خشومها لتسف ماترسب من الحبوب أثناء قيامها بدرس القمح . وكيف كنا نضطر فى أحيان كثيرة الى ربط هذه الخشوم حتى لاتأتي على القمح كله . إذن فالبقرة رضيت بالتبن لاعن رغبة ولكن عن أضطرار ، وقلة حيلة .

ثم عاد بي خيالى الى ما قامت به هذه البقرة من مجهود . وماتحملته من كد وكدح فى زراعة وأنضاج هذا القمح الذى ستأكل من تبنه الآن . إنها حرثت الأرض . . نعم كان أحدنا يمشى خلفها يوجهها ويمسك بيدالمحراث ولكنها هى التى كانت تعاني من جر المحراث المنغرس فى الأرض .

وقامت هذه البقرة بمساواة الأرض وتكسير ماتخلف من كتل بعد الحرث . وكانت تشد المسحاة بينما جلس احدنا على هذه المسحاة ليزيدها ثقلا .

كم دورة ياترى دارت هذه البقرة فى الساقية لتسقى الأرض . كم من أيام بطولها علقت على الساقية تلف وتدور ساعات وساعات لانهاية لها ، لاترتاح خلال هذه الساعات الطوال ريثما نتناول نحن فطورنا أو غداءنا وتستمر هى واقفة والنير على رقبتها وامامها حزمة من اللوبية .

وأخيرا ينضج القمح ويجف .ونقوم بحصده وجمعه، وتأتي هى تلف وتدور مرة أخرى حول خشبة نصبت فى وسط الحقل . تلف وتدور

تهرس باظلافها سيقان القمح وتفصل الحب من التبن . فنأخذ نحن الحب الى بيوتنا نختزنه ويبقى بعض التبن لها بعد أن نبيع بعضه الآخر .

وهنا لم أستطع أن اكبح جماح نفسى . فضربت الأرض بقدمى فى عنف وفى ثورة . وأعماقى تصيح مزمجرة « إن هذا ظلم . والله إنه ظلم » وطفرت من عيوني دموع الشفقة والرحمة على هذا الحيوان المسكين الذى يستغله الإنسان ابشع استغلال . وهو لايملك ردا لبلاء . ولادفاعا عن نفس . وتحجر قلب الإنسان فلم يرحم ضعف الحيوان . ولاقلة حيلته . وحجبت مصلحته الخاصة وانانيته كل شئ ماعداها عن عينيه .

كنت قد وضعت التبن فى المعلف وجلست قبالتها اراقبها وهى منهمكة فى طحن التبن بفكيها القويتين ، وازدراده . بينما اثارت انتباهى خنفساء ضخمة راحت تدحرج كرة من الروث أمامها . مسرعة بها الى بيتها قبل أن تغيب الشمس . وتسلقت رجلى نملة وراحت تدب مرتفعة الى ركبتى . فسحقتها بضربة قوية من كفى . واذا بصوت من داخلى يرتفع على كل الاصوات يسألنى بخبث وسخرية لماذا سحقت النملة ؟ وكان فى امكانك أن تنفضها عنك دون أن تقتلها ؟ لماذا سحقتها وأنت تبحث عن العدل ؟فوجمت. وإذا بي أتساءل العدل ؟ وأين العدل فى الدنيا ؟ وهل هناك حقا شئ أسمه العدل ؟ . وحتى إن كان له وجود هل يباشره الناس باختيارهم أم أنهم لايعترفون به ولايمارسونه الامضطرين ؟ والإحين يدفعهم اليه دافع لايستطيعون رده أو الفرار منه ؟ .

ثم هل العدل واحد فى كل زمان ومكان ؟ أم أنه انواع والوان مختلفة ومقاييس متباينة كالثياب تماما يلبس كل فريق ما يناسبه منها ؟ .

هل مثلا مانراه نحن الأفريقيين المستضعفين عدلا تراه الدول المستعمرة القوية كذلك ؟ .

هل مايراه السود في روديسيا وجنوب افريقيا عدلا يراه البيض المتسلطون كذلك ؟ .

هل مايعده السود المضطهدون فى امريكا عدلا يراه البيض هناك كذلك ؟ .

هل من العدل أن تفنى شعبا بدعوى أنه بربرى متأخر ، وتسلب منه ارضه وذهبه . وتقيم عليها مدنيتك ، وتترك ذلك الشعب ينقرض فى الغابات والمناطق الفقيرة النائية كما فعل الاوربيون في امريكا بأبادة الهنود الحمر ، والأنجليز فى أستراليا وغيرها ؟ .

هل من العدل أن تذهب الى قوم يبعدون عنك آلاف الأميال وتذبحهم فى عقر دارهم لمجرد أنهم فضلوا أن يعيشوا بطريقة لاتريدها انت لهم كما تفعل امريكا فى الهند الصينية ؟ .

تتابعت على ايام كثيرة . منذ ذلك اليوم الذى جلست فيه قبالة بقرتنا . وانا حانق على الظلم ، باحث عن العدل . ومع كل يوم جديد يظهر ظلم جديد وكلما أتسع افقى وتوسعت الدائرة التى انظر فيها ، لا أرى ولاتقع عيناى الاعلى تعسف أفظع وظلم لايحتمل .

تكشف لى أن مئات الألوف من العمال يكدون ويكدحون كتلك البقرة تماما . ويدمعون ويعرقون لينالوا التبن أو ماهو بمثابة التبن من الفتات والفضلات ، بينما يذهب الحب اللذيذ لصاحب المصنع . الرجل الذى يملك

المصنع ويملك معه مصادر ارزاق هؤلاء العمال . إنه يملك أن يطرد أحدهم ويستخدم آخر بدلا منه ربما لأنه أرخص أجرا ، أو ربما لأ نه اكثر طاعة وخنوعا . الرجل الذى يملك رتلا من السيارات وكانت تكفيه واحدة . الرجل الذى له فى كل مكان قصر وكان يكفيه واحد .

تكشف لى أن مئات الألوف من الناس قد فقدت حياتها وغطت جثثها رمال الصحراء فى الحرب العالمية الثانية . حين كانت الجيوش العملاقه تتطاحن فى الصحراء الليبية . مئات الألوف من الأنفس اندثرت . ولكن لم نكن نسمع تلك الايام الا أسمين مونتجمرى ، بطل معركة العلمين وروملى ثعلب الصحراء، وكل مجهودهما لم يتعد الجلوس فى مكاتب مريحة ولو أنها اعدت على عجل فى بقعة مأمونه يديران منها المعركة باللاسلكى . ومالى أحسد روملى ومونتجمرى على هذه الشهرة وعلى هذه البطولة التى وصفا بها على حساب مئات الالوف من الجنود القتلى ؟ مالى أحسدهما وهم بدورهما مأجوران يعملان ، أحدهما لرأس مال سمى نفسه بالمحور والآخر لرأس مال سمى نفسه الحلفاء. وإن الحرب الحقيقية هى بين هذين الرأسماليين . يريد كل منهما أن يبتلع الآخر . ويضيع فى هذه المعركة مونتجمرى المظلوم وروملى المغبون ، وملايين الشباب المخدوعين .

تكشف لى أن العمال الذين يحملون الخرسانة على رؤوسهم ويصعدون بها على سقالات مهزوزة تتأرجح ، ليبنوا شاهق العمارات ، يأوون آخر الليل الى اكواخهم القذرة حيث يفترش اطفالهم التراب .

علمت بعد ذلك اليوم أن الشاعر الذى خلق معنى القصيدة وأبدعها .

والذى انفعل بكل كلمة فيها وصب هذه الكلمات فى هذا القالب الجميل . وأن الملحن الذى أبدع هذه الموسيقى التى تطرب لها نفوسنا ، علمت أن هذا الملحن وذلك الشاعر ينزويان فى ركن الاهمال والنسيان بينما يظهر ويلمع اسم المغنى الذى لاتتعدى مواهبه صوتا جميلا ، أو على الأقل يظنه بعض الناس جميلا .

كلنا يعرف من هي « لايكا » الكلبة التى ارسلت فى اول مركب فضائي . ولكن كم منا يعرف أو سمع بأسم العالم أو العلماء الذين كانوا سببا فى وجود هذا المركب الفضائي ؟ . كم منا يعرف اسم باستير وانشتاين وغيرهما من العلماء والمفكرين الذين كان لمجهودهم الفضل فيما نحن فيه من نعم لاتحصى ؟ ومن ناحية اخرى من منا لايعرف شيئا صديقة طرزان الودود.

يوم عرفت كل هذا . كدت أكف عن التحدث عن العدل . وكدت أكف عن الغضب وعن الثورة . وعن نطح صخرة لاتلين . لولاأننى عرفت فى نفس الوقت أنه ليس هناك صخرة لاتتحطم أمام أرادة البشر . وأمام تكاتفهم وأمام أصرارهم . وأن الجماهير يوم تقف لتسأل نفسها عن العدل ، ويوم تغضب على الظالم . سوف لايكون هناك ظلم وسيرفرف العدل على الجميع .

العربية الكارو

العربة الحكومية تنطلق بي في أحد شوارع المدينة . وأنا جالس في مقعدها الخلفي ، جلسة توحي بالأبهة والعظمة . وعلى وجهي تكشيرة مصطنعة . تعلمتها من أحد رؤسائي ، وظننت ـ لفجاجة تفكيري ـ أنها توحي بالسلطة والجبروت .

أما قلبي فكان ممتلئا بالغرور والشعور بالأهمية. وكأن الفلك لم يكن ليدور لو لم أكن موجـودا فيه . ذلك الشعور بالأهمية الذي يمـلأ قلب كل شاب حديث التخرج من الجامعة . لم تطحنه الحياة بعد . ولم تعلمـه حتى ذلك الحـين أن هناك بلايين من البشر كانوا قبـله ، وأنه سوف يأتي بلايين منهم بعده . وأن كل فرد من تلك البلايين ربما شعر بنفس الشعور وأن الشمس لم توجد الالتدفيء أيامه ، وأن القمر لايكتمل الاليضيء لياليه .

وكان السائق يجلس أمامي. وهو لايفتأ يحدثني بصوت مؤدب خفيض. ولاينسى أن يرصع جمله بين حين وآخر بكلمة جنابك ، يزيدني غرورا على غـرور .

كان ذلك حالي حين رأيتهما ، حمار وإنسان . وبينهما عربة كارو تكاد تنوء بما تحمل من أثقال . الحمار يجرها من أمام وقد أخذ الجهد منه كل مأخذ ، ونفرت كل عضلة في جسمه ، ونتأ كل عرق فيه من فرط المجهود الذي يبذله . وتدلت رأسه حتى كادت تلامس الأرض . وبرز لسانه من بين اسنانه حتى كادت تطأه قدماه . وتصبب العرق من جميع جسمه . وهو مع كل هذا يناضل ليتقدم جارا العربة ويئن مع كل خطوة يخطوها .

اما الإنسان فكان يدفع العربة بكل قوته من الخلف وهو يلهث . وقد ابتل قميصه عرقا حتى خصره ، والتصق بجسده . ولم يكن حاله من التعب والإرهاق بأحسن من حال الحمار ، إن لم يكن أسوأ .

كانا فى عنائهما ذاك يعطيان صورة واضحة للشقاء الذى يعانيه بعض الناس ليجدوا مايقيم أودهم وأود عيالهم . كما كانا صورة لذلك التعاون بين الإنسان والحيوان الذى رضى أن يشاركه الشقاء كما يشاركه فى الرزق القليل الذى يحصلان عليه .

ولكن عينى الغريرة لم تر يوم ذاك من كل هذا شيئا . ولم تر أمامها إلاعربجيا متلبسا بارتكاب مخالفة . وذهب عقلى يفتش فى حناياه وأركانه عن ماحفظه من قوانين واوامر محلية : كالتى تقول (يجب أن يكون الحيوان هيئته كذا وكذا ؛ والعربية يجب أن تكون فى الحالة الفلانية ، وان تكون عجلاتها من المطاط المنفوخ ، وأن لاتزيد حمولتها بالنسبة للحمار عن كذا ؛ وللحصان والبغل عن كذا) . كما أسرع ذهنى يستحضر عشرات القصص التى حكيت لنا عن ماكان يفعلـه الانجليز فى مثل هذه المواقف . مثلا قصة ذلك العتال الذى ترك حماره محملا ، ودخل أحد المطاعم ليأكل وتصادف أن كان المفتش الأنجليزى فى مروره ذلك الصباح ، فرأى الحمار مقيدا ، محملا . فسأل عن صاحبه ، وعلم أنه بالداخل يأكل . فما كان منه الا أن ناداه . وجعله يحمل الشوال بينما وضع للحمار قدحا من الفول . ولم يسمح للعتال بأنزال الكيس إلابعد أن أتي الحمار على كل الفول . .

وقصة أخرى يقال فيها أن المفتش الانجليزى أيضا وجد عربجيا ينهال على حماره بالسوط . فما كان منه الا أن حل الحمار وربط العربجى مكانه فى العربة وامره بسحبها ، وهو ينهال على ظهره بالسياط . وعشرات من أمثال هذه القصص . ولما كان كل تعليمنا آنذاك يهدف الى صبغ عقولنا بالصبغة الانجليزية ، ويرسخ فيها أن السلوك الأنجليزى هو دائما الأصح والأكثر تمدينا ، فإن عيناى عميت عن رؤية قطرات العرق التى كانت تتساقط من وجه العربجى . ولم تر عيناى تعابير الألم والأرهاق التى أرتسمت على وجهه . ولم تر ظهره المحنى . ولاعروقه النافرة . بل لم تر تلك الأسمال المتسخة التى كان يرتديها . ولم تر أن قدميه حافيتان . لم تر عيناى من كل ذلك الا أنه قد تعدى على حيوان أبكم ، لايملك أن يحتج . ولا أن يدافع عن نفسه . ونسيت فى فورة حماسى وعطفى المصطنع على الحيوان أن مثل هذا العربجى أيضا ابكم . لايملك من أمره شيئا . وهو أيضا لايستطيع الدفاع عن نفسه ضد كل هذه القوانين والأوامر ، التى تحاول أن تنظم له حياته بطريقة لايفهمها هو . ولكن واضعيها يصرون أنها صالحة . ماذا يعرف هذا العربجى عن أولئك الرجال المتأنقين المرفهين المنعمين ، والذين جلسوا يوما فى حجرة ذات مراوح يحتسون القهوة أو الكركدى المثلج ويدخنون اللفائف المعطرة الفاخرة ليضعوا هذه القوانين والأوامر المحلية، بل ماذا يعرف أولئك الرجال المحظوظون عن هذا العربجى الذى ستمسه قوانينهم . التى وضعوها ؟ ، ماذا يعرفون عن الشقاء والعذاب الذى يعانيه ليتحصل على يوميته ؟ هل ياترى تذكر أولئك الرجال أن هذه الأحمال التى تنوء بها العربة، وينوء بها الحمار نقلها كلها هذا العربجى على ظهره ؟ ورصها بيديه ؟ وهاهو ذا يحاول مساعدة الحمار بدفع العربة رغم حرارة الشمس . ولهيب الأسفلت الساخن الذى يكوى قدميه المشققتين .

ولكن مالى أنا وكل هذه الافكار ؟ إن الأنجليز الذين يجب أن اقلدهم لم يكونوا يفكرون فى كل ذلك . إن القانون يجب أن يحترم مادام ساريا . فلتقف العربة ، ولأترجل لأحاسب هذا العربجى الحساب العسير الذى يستحقه ، لعدم رأفته بالحيوان . وفعلا أشرت للسائق بالوقوف . فوقفت العربة وترجلت . ووقفت منتظرا العربة الكارو حتى تصل الى المكان الذى انا فيه .

وصلت العربة ووقفت . ورفع الرجل رأسه ، وتقلصت ملامحه من الألم الذى يعانيه . وأضطر أن يضع كفيه على ظهره وهو يحاول بصعوبة وألم أن يقيم ظهره المنحنى . وانفلتت آهة رغما منه من فمه المفتوح . وبدأت الأسئلة – أسمك ؟ نمرة عربتك ؟ كم الحمولة التى تحملها ؟ الاتعلم أن هذه الحمولة اكثر بكثير مما يسمح به القانون ؟ اليس فى قلبك ذرة من الرحمة على هذا الحيوان المسكين ؟ .

واخذ المسكين يلهث خلفى محاولا ملاحقة اسئلتى بأجوبة . وهو مايكاد يجيب على سؤال حتى أصفعه بسؤال آخر . ولكن سيل أسئلتى توقف فجأة لا أدرى لماذا ، حين سمعت جوابه على سؤالى الأخير .

– هو فيه حد بيرحمنا أحنا علشان نرحم الحمار .

ثم استطرد بصوت حزين :

– والله يادكتور انا شفقان على الحمار ده اكثر من اى واحد ، لأنه هو اللى بيصرف على أولادى . واليوم اللى يتعطل فيه أو يمرض يمكن يناموا من غير عشا . لكن اعمل أيه ؟ أصحاب البضائع مستعجلين على نقل

بضائعهم ، ومايهمهم شئ آخر ، واذا الواحد احتج أن الحمولة كثير على دور واحد ينادوا واحد غيره والمستعدين كثيرين .

وهنا مر بنا لورى ضخم يهدر ويزمجر . فنظر اليه العربجى بعين الحسرة واضاف يقول :

— واللوارى دى جنابك ، الله يخرب بيتها . ماخلت لينا لقمة حايمة . الأول كنا بنافسها لأننا ارخص لكن دى الوقت عددها كتر . وسعر حمولتها نزل . والواحد فيهم يعمل له كذا دور بينما ازجف انا بدور واحد وأصحاب اللوارى ناس مقتدرين . الواحد فيهم يشترى لـــه كام لورى ويحتكر الشركات بكنتراتو ونفضل احنا وحيواناتنا من غير عمل نتشمس .

ومرت بذهنى حقيقة وهى أن لكل شئ ثمن . وأن ثمن تقدم سبل المواصلات يدفعه هذا المسكين . وهذه ايضا قوة اخرى ضده لايملك لها دفعا .

ولاحظت أن تكشيرة السلطة والسطوة بدأت تذوب . واخذت ملامحى تلين . وفى هذا خطر كبير على هيبتى ومركزى . فاستعدت كل ذلك بسرعة وقلت له بصوت حاولت جهدى أن يكون صارما :

— طيب الدور ده معليش ولكن أنا معايا نمرة عربيتك واذا شفتك شايل زيادة عن الحمولة مرة تانية حافتح بلاغ ضدك .

وتركته وهو يرفع يمينه الى رأسه شاكرا . وعدت الى السيارة . وبودى لو كنت فى موقف أستطيع فيه أن ادفع معه العربة الكارو وأساعده .

واصلت السيارة سيرها ووجدت يدى تمتد الى جيبى وتتناول الورقة التى أخذت فيها اسم العربجى ونمرة العربة وتكورها بعنف وقسوة .

وتلقى بها من النافذة . وكأنما السائق قد لاحظ ذلك فقد جاءني صوته مؤدبا كما كان ، خفيضا كعادته يقول .

— الناس ديل مساكين جنابك .

فاجبت بصوت هامس وكأنني اخاطب نفسي ،

— صحيح مساكين . .

ورفت على شفتي بسمة حين تذكرت أحدى الليالى . وأحد اصدقائي يجلس بجانبي بعد أن احتسى عددا من الكئوس وهو يقول لى بلسان أثقله الشراب .

— انت عارف أحنا محتاجين لأ يه فى البلد دى ؟

ثم يجيب نفسه قائلا :

— احنا محتاجين لجمعيات الرفق بالحيوان . ويخبط المائدة بقبضته وهو يصيح من فرط أنفعاله .

— ايوه لازم يكون فيه جمعيات الرفق بالحيوان . أنا شفت الجمعيات دى فى انجلترا . ماتتذكر الانجليز جاطوا كيف لما الروس رسلوا الكلبة « لايكا » فى مركبة فضاء غير مأمونه .

هل يدرى صديقى هذا اننا فى بلادنا فى حاجة أشد الى جمعيات الرفق بالانسان . . . . . ؟

عقلية الحمار

أخذت العربة تئن أنينا متواصلا وهى تكافح الرمال التى كادت تبتلعها . . . السائق يتصبب عرقا من حرارة الجو الخانقة ومن ذلك المجهود الذى راح يبذله حتى لاتوحل العربة . . . اجلس متكاسلا وقد أرتسمت على وجهى علامات الضجر والضيق والملل . أمد يدى بين الفينة والأخرى الى كتاب فى « الطبلون » وأحاول قراءة أسطر منه ، ولكن أهتزاز العربة المتواصل يجعل ذلك مستحيلا . فأعود وأضعه مكانه ، وقد زاد سأمى وملى

انظر من النافذة . . . لاشئ . أشجار صغيرة كئيبة حزينة تعانى من العطش . وأحتمى بظلالها الصغيرة عشرات من الماعز التعسة العجفاء . فأعود وانظر الى الامام . . . الى الطريق الممتد الى مالانهاية .

وبغتة وقعت عيناى عليه . حمار أبيض صغير كان قابعا فى ظل شجرة إمتد ظلها عبر الطريق. وسمع هدير العربة وهى تقترب منه. فالتفت اليها أولا كالمندهش ، وقد أنتصبت اذناه . ولما وجد أن المسألة جد وأن العربة تقترب ، انتفض واقفا . وأخذ يعدو ويبرطع بأقصى سرعته بعيد عن العربة . ولكنه لم يزايل المجرى الذى أحدثته العربات فى الرمال . وكلما فقد السائق أعصابه وضغط على (الكلاكس) كلما أزداد صاحبنا الحمار جنونا ، واصرارا على العدو امام العربة مصرا ألايحيد عن الطريق . حتى أخذت قواه تخور ، ولكنه مضى فيما هو فيه . بل زاد عليه يخفض رأسه . ويركل السماء بقدميه الخلفيتين فى محاولة يائسة لأرهاب هذا العدو الذى لايفهمه . والذى اخذ يطارده دون هوادة . ولم يجد السائق مناصا من

أيقاف العربة حتى يزيح الحمار من الطريق . وحين تحركنا مرة أخرى اذا بصاحبنا يختفى بين الأشجار وهو لايزال يبرطع ويركل الهواء بحافريه . فلم نتمالك أنفسنا من الضحك ، وأبتسم السائق وهو يقول :

— الاترى أن هذا الحمار يظن أننا لم نقطع هذه الفيافى ونركب هذه المشقات الالنطارده . ؟

فضحكت قائــلا :

— ليس هذا فقط بل ربما كان فى ظنه أن الله لم يخلقنا أساسا ولم يعطنا هذه الآلة المخيفة الالمضايقته ،

ولكنى لم أواصل الضحك . فقد مرت بخاطرى فكرة غريبة . وأخذت اقارن بينى أنا الإنسان ، وبين هذا الحمار . إن هذا الحمار يخاف من الأشياء التى لايفهمها . وينسيه هذا الخوف مجرد التفكير السليم ، حتى ينحرف عن الطريق يمينا أو شمالا ، ويدع هذه الآلة ذات الصوت المزعج تمر فى طريقها دون أن تمسه بسؤ . ولكنه لايمكن أن يصدق أن هذه الآلة ، ومن فيها ، ليس لهم شأن به . ولايهمهم أمره فى كثير أو قليل . وأنما هم ماضون لغاية لايدركها عقله — إن كان له عقل — أنه يرى نفسه بطريقة ما شيئا مهما تهتم بأمره قوى عظيمة لايفهمها . وتكلف نفسها مشقة مطاردته وعقابه . ومرت بخاطرى صور كثيرة رائعة من تاريخنا البشرى .

رأيت قومى وأجدادى عرايا ، مذعورين فى الغابات ، يعبدون النار ذلك الشئ الذى ليس هناك حدود لقدرته على التدمير ، وقدرته على اثارة الآلام والعذابات . رأيتهم حين ترعد السماء وتبرق ، يصرخون مستعطفين هذه القوى الغامضة . ثم يسرعون الى أبنائهم وبناتهم يذبحونهم ، ويلقون

وأذا بك تنظرين الى ذلك الجد نظرة احتقار وأزدراء . وتودين أن تحفري قبره وتستخرجي عظامه فتحرقينها وتسامينها الى عواصف الرياح . .

كنت أقابله كل ليلة على السطح . وكثيراً ماكنا نتجول ونقفز من سطح لآخر ، وهو لايكف عن الكلام والحديث . إن صوته الرهيب المهيب يرن في أذني الى اليوم ، وهو يقول :

— ماذا كسبنا من إنسلاخنا عن أهلنا السباع . وتركنا جوارهم ؟ ! ماهو حالنا اليوم اذا قارناه بحال أبناء عمومتنا الأسود والفهود والنمور ؟ وماذا فعل بنا ذلك الجد الأخرق الذي يرفعونه الى مصاف الآلهة ؟ غير أن بدل عزنا ذلا ، وحريتنا عبودية ، وغير مفاهيمنا ؟ فأصبحنا نرى الليل نهار والنهار ليلا . إنه لم يفعل بنا أكثر من حبس عقولنا في قمقم مظلم كئيب . وختم ذلك القمقم بتعويذة الحرام . إن ثرت على الظلم فالثورة حرام . وأن ناقشت ماجاء به من الغش والخداع فهذه المناقشة حرام . واذا طالبت بأهون حقوقك فهذه المطالبة حرام . . .

منذ تلك الليلة التى قابلته فيها ، تفتح ذهنى على أشياء كثيرة . وتجلت لى آفاق بعيدة ، ولكنها مشرقة مضيئة . كم حاولوا المستحيل بعدها يحببونها ليحجبوها عن ناظرى . منذ تلك الليلة تغير فى كل شئ . صرت أعاف مايقدم لى من الطعام . وصرت أفضل صحبته والتجوال معه في زمهرير الليل ، على الأستلقاء فى أسترخاء على حشية دافئة .

أصبحت ميالا الى المشاغبة والشجار ، تواقا للمغامرة والبحث عن كل جديد فى الآراء والمعتقدات .

أني اذكره يقول وقد ثار الزبد من فيه :

— إن الحرية والكرامة ليست بعيدة عنا يابنى . انها أقرب مما يظن الكثيرون

ثم قلبت صفحة أخرى من تاريخ البشرية فرأيتهم ينظرون الى أنفسهم وكأنهم محور هذا الكون وأساس هذا الوجود ! .

فالنجوم ليست فى أماكنها هذه ، الالتزين لهم سماءهم ! .

وهذه السماء ذاتها لم توجد الالتظلهم ! .

وهذه الأرض خلقت ليكونوا هم عليها . . . وكأنها لم يكن لها وجود قبلهم ولن يكون لها وجود بعدهم .

أما تلك النباتات والحيوانات والأسماك التى تعيش معهم على سطح الأرض فلم توجد الا لطعامهم وركوبهم ورفاهيتهم

إنهم يرفضون رفضا باتا أن يعترفوا أنهم حدث صغير جدا من بلايين الأحداث . . . .

وأن أرضهم هذه التى كانوا يظنون أن الشمس والكواكب والنجوم كلها تلف حولها ، وكأنها ترقص محتفلة بوجود الإنسان على سطحها ، ليست إلا ذرة لاتكاد ترى بجانب الاجسام والأجرام الكونية الأخرى . وأن وجود الأنسان أو عدمه لن يغير شيئا فى نظام الكون .

وأن الشمس ستشرق ، وأن الكواكب ستسير ، سواء أستمر الإنسان فى الوجود أم أفنى نفسه بأسلحته الحديثة .

إنهم يرون أنفسهم أعظم من أن يموتوا ، فهم يخلقون لأنفسهم عالما آخر يعيشون فيه متمتعين . وهناك لن يعرفوا طعم الموت ابدا ولن يذوقوا مرارة الفناء .

هذا الحمار الذى كان يبرطع ويجرى منذ لحظة . سيموت ويندثر . سيتحلل جسمه . ويعود الى مواد أولية تختلط بتراب الارض ، وتمتصها

جذور النبات . وتعود الكرة مرة أخرى ، أما أنا . اما هذا السائق فأننا سنشارك هذا الحمار الموت كما شاركناه طريقة التكوين والميلاد .

فكلنا كنا بويضه ملقحة يوما ما ومرت فترة أكتمل فيها تكويننا . ثم ولدنا بنفس الطريقة . فإذا هو جحش صغير يقفز حول امه . ويرضع لبنها وأذا نحن أطفال صغار نتدحرج ونركل الهواء بأيدينا وارجلنا . ونبول ونتبرز ، ونصرخ طالبين الرضاع ، أو مشتكين من ألم .

ثم يكبر ونكبر . ونصبح قادرين على الأنجاب . فينجب هو الجحاش وننجب نحن الأطفال . ويشيخ ، ونشيخ . ويموت . ونموت . ولكن عند الموت تفترق الدروب . نعم ، أن جلده ولحمه سيتحللان وسوف لايبقى منه الاهيكل عظمى يتحلل هو الآخر بعد حين . وربما حدث لأجسامنا نفس الشئ . ولكن نحن لنا ارواح ستفوز بالخلود . وستبعث وتحاسب . وتفوز بالنعم المقيم أو تغوص في أعماق الجحيم .

عد أيها الحمار الى مرعاك . وعش فيه منطلقا خلى البال ، حتى يحين حينك . . . وحين يأتي ذلك اليوم الذى أخشاه انا ، ولاتخشاه انت . فمت هادئا . ودع قوانين الطبيعة التى لاترحم ، والتى لاتتراجع تأخذ مجراها . إذن من أنت أيها الحمار حتى تقف في وجه هذه القوانين أو تحاول أن تغير مجراها ؟ .

ولاتثر أيها الحمار على القيود التي يقيدك بها الإنسان . فقد كبل نفسه بمئات الاغلال والقيود ، وهو الذى يظن نفسه الحر الطليق .

أذهب ودعنى ، فأمامى طريق من الكفاح طويل . على أن اكافح لأعيش فى هذه الدنيا سعيدا . وعلى أن أكافح حتى اعيش فى الآخرة سعيدا . ومن يدرينى أننى لن اكافح لشئ آخر فى تلك الحياة الثانية .

العصا وحزمة البرسيم

قليل منا لم يقرأ ، أو على الأقل لم يسمع . بذلك الحمار الذى لم يكن يتقدم براكبه خطوة واحدة ، الا اذا أحتال عليه بربط حزمة من البرسيم على عصا . وعلق تلك الحزمة أمام عينيه . وحينذاك يتقدم الحمار بل يهرول ويسرع براكبه الى حيث يريد ، وعيناه شاخصتان الى حزمة البرسيم . لايرى شيئا مما حوله الا تلك الحزمة المنشودة . ولاينفك يتقدم نحوها لينالها . ولكنها تبتعد خطوة كلما تقدم هو خطوة . ورغم ذلك لاييأس . ولايفقد الأمل أبدا . وكيف ييأس أو يفقد الأمل وهو حمار ، ليس له من العقل مايدله على أنه لن ينال تلك الحزمة التى يتخيل أنها قريبة منه وهى فى الحقيقة بعيدة عنه . . . ومن أدراه أنه لن ينالها ولو لف الكرة الارضية ، لأنها مربوطة فيه وتكاد تصبح جزءا لايتجزأ من جسمه . . ومن أدراه أن حاله ستكون ابدا حال ذلك المجنون الذى يحاول أن يرفع نفسه بيديه .

على كل ستنجح الحيلة ويصل الراكب الى المكان الذى يريده . . .

ولكن هل فعل الحمار مايراه منه عن أقتناع بجدوى هذا الفعل وفائدته الجواب بالطبع لا . إن هذا الحمار قام بحمل سيده الى حيث يريد ، ليس عن أقتناع وانما رغبة فى ثواب . وهذا الثواب يتمثل فى ذهنه وينحصر ، فى حزمة البرسيم التى يراها أبدا أمامه . ويمكننا أن نقول أن الحمار فى الحقيقة . ومن وجهة نظره هو ، لم يحمل صاحبه الى المكان الذى يريده . وأنما سعى الى هذه الحزمة المأمولة . وأن وجود صاحبه على ظهره أثناء ذلك السعى لم يكن الاعرضا . وشيئا ليست له أهمية ولايستحق التفكير .

أما الراكب فالمهم لديه أنه وصل . ولايهمه البته ماذا يجول في رأس الحمار . ولايهمه أيضا اتهامه بانه أستغل جهل الحمار الفاضح . وقصر نظره بل ربما ضحك ساخرا ممن يتهمونه بذلك .

وهناك حمار من نوع آخر . مثل هذا الحمار تعود أن لايحترم الا الشدة والقسوة والعنف . ولايطيع الاالعصا . ولايحترم الامن يذله ويهينه . دع صبيا صغيرا يركبه ؛ وهنا لن يتحرك من مربطه خطوة . بل دع شيخا يرى أن القسوة بالحيوان حرام ، ويحاول أن يسوق هذا الحمار بضربات خفيفة من مسبحته ، وسيظل الحمار واقفا مكانه لايتحرك ببرود متناه . وبلادة لاتوصف . سوف لاينفع مع مثل هذا الحمار دموع الصبي . ولن تجدى معه توسلات الشيخ الطيب التقلب .

ولكن دع شابا يفهم طبعه اللئيم ليعتلى ظهره . ويقسو عليه . ويلهب ظهره وينهال ضربا على رقبته بالسياط ، ولكزا على بطنه بالركلات . فأذا بهذا الحمار البليد ، الذى كان يقف منذ لحظة وكأنه قد من صخر . تدب فيه الحياة فجأة ، واذا به يتحرك بهمة ونشاط هائلين . واذا به سريع سرعة الريح ، يسابق بقية الحمير ويسبقها .

هذا الحمار يفعل مايراد منه . ليس عن أقتناع . وأنما عن خوف من العقاب الذى يتمثل له في عصا غليظة ؛ تنهال على رأسه بضربات مؤلمة موجعة .

اعلى قد ظلمت جنس الحمير أذا قسمتهم الى نوعين فقط وأذا قلت أنهم اما حمقى أغبياء أو بلداء لئام . فمنهم : والحق يقال . الأصلاء العقلا . الذين يعرفون مايراد منهم . ويعرفون واجباتهم . ويقومون بها عن طيب خاطر . بغض النظر عن الثواب والعقاب . يطيعون راكبيهم طاعة

عمياء . ولايحتاج هذا الراكب الى التسلح بهراوة غليظة ، ولابحزمة من البرسيم . قبل ركوبهم . ولكن هذا النوع بالأسف قليل العدد ، ولايعتد بهم .

ولاتنسى أن من أنواع الحمير أيضا ، النوع الغادر الخائن المؤذى . والذى لايكتفى بالعصيان الصامت ، وأنما يهاجم الناس بغية عضهم ، أو يستدير مسرعا ويكيل لهم الرفسات. ومنهم من يقف هادئا يغريك، حتى تعتلى ظهره ، وتستوى عليه ، فينقلب فجأة الى مجنون . ويأخذ فى القفز والوثب . ويندفع فجأة يجرى ، ثم يتوقف فجأة . كل ذلك بغية القائك أرضا وتكسير عظامك.

ولكن لنا الحق أن نتساءل ، وقد وجدنا أن الحمير تختلف فى السلوك اختلافا بيناً ، لماذا نجد كل هذه الأنواع المتنافرة من الحمير وكلها حمير ؟ وهل هناك شئ يجرى فى دماء بعضها فيجعلها خنوعة مطيعة لاتعصى لسادتها امرا ؟ ويجرى فى دماء بعضها الآخر شئ مختلف ، فيجعلها عاصية متهجمة أو لئيمة غادرة ؟ أم أن كل الحمير تولد متشابهة ، ثم تختلف عندما تكبر ، بأختلاف الوسط الذى وجدت نفسها فيه ، متأثرة بالتربية والتهذيب اللذين كانا من نصيبها ؟ وهل مستقبل هذه الحمير يقرره ذلك الرجل الذى يقوم بتدريبها ، وكبح جماحها بادئ ذى بدء ؟ وهل يصبغ هذا الرجل أخلاقها وسلوكها بصبغة لاتمحوها الأيام والسنون ؟ .

ربما كان الرأى الأخير أقرب للصواب وهو أن التربية والتدريب لهما أثر كبير فى تكييف سلوكها وتعديل طباعها وأن الاخلاق لاتورث ، ولكن البيئة والظروف هى التى تشكل السلوك الحميرى فى مستقبل الأيام .

هذا عن الحمير . فماذا ياترى عن الأنسان ؟ ولتعذرني أيها القارئ

اذا قلت أنني لاأجد فرقا كبيراً ، إن كان هنالك فرق . فنحن منذ نعومة أظفارنا ممنوعون من أشياء بعينها وإلانالنا عقاب . وهذا العقاب يتطور معنا ويكبر كلما كبرنا . فالعقاب يبدأ في شكل حرمان من نزهة أو وجبة طعام . أوضربا بالعصا ، أوصفعات . ويكبر معنافيصبح سجنا . وقد يصل الأعدام والعياذ بالله .

وكذلك في كل طور من اطوار حياتنا . لكل شئ ثواب أو عقاب فالعقاب يتطور كما أسلفنا من زجرة أب غاضب ، أو صفعة منه . حتى يصير سجنا وأعداما . ويصل نهايته في شكل جحيم تعجز عن وصف عذاباته الكلمات . وهو العذاب الذى ليس بعده عذاب . والعقاب الذى ليس أشد منه عقاب .

والثواب يتطور أيضا ، من قطعة حلوى أو قبلة من الأم الحنون . الى رغبة في العيشة المرفهة الناعمة . ولهذا ترانا نذاكر لننجح . ونتوظف . ونعيش عيشة رغيدة . ونلبس «البنطلون » ، وربما أسعد الحظ بعضنا فركب السيارات الرائعة . وسكن القصور الشاهقة . كل هذا في هذه الدنيا الفانية . أما في الآخرة . فهناك الجنات التي تجرى من تحتها الأنهار . والحوريات . والولدان المخلدون . وهذا هو الثواب الذى ليس بعده ثواب . والنعيم الذى لايضاهيه نعيم . .

أذن فحزمة البرسيم لها ما يقابلها عندنا نحن البشر . وكذلك العصا . .

هكذا نظرت القوانين سماوية كانت أوارضية الى الانسان . أنه مجرد حمار لايسلك الطريق السوى ، أو الذى تراه هذه القوانين سويا . الا إذ كان راغبا في ثواب ، مهما كانت درجات هذا الثواب . أو خائفاً من عقاب . مهما كانت درجات هذا العقاب .

ولكن لماذا نحن كذلك – إن كنا فعلا كذلك – هل لأننا جبلنا وخلقنا على هذه الحال ؟ وأن سياسة الترغيب والتخويف والوعود والوعيد هي السياسة الوحيدة التي تناسبنا ؟ أم نحن لانعترف بتلك السياسة ونتقدم ، الا اذا كانت أمام أعيننا حزمة من البرسيم ، أو على ظهورنا عصا غليظة . أم نحن كذلك لأن هذه القوانين ، وتلك التقاليد ، والمعتقدات ، التي رضعناها مع البان أمهاتنا . هي التي وضعت أمامنا منذ البداية وإن لكل شئ ثمنا . وأن لكل فعل ثوابا أو عقابا أن عاجلا أو آجلا ؟ أم هل وضعت هذه القوانين لتسايرنا وتناسبنا ، أم نحن خلقنا هكذا لنسايرها ونناسبها ؟ وهل هذه القوالب التي نسميها قوانين أو تقاليد فصلت لتناسب أجسامنا ؟ أم أنها قوالب صلبه لاتلين فشكلت أجسامنا لتناسبها ؟

وعند هذا الحد نجد أنفسنا أمام حلقة مفرغة ، شبيهة بتلك التي تناقش إن كانت البيضة من الدجاجة أم الدجاجة من البيضة . . .

ومهما كان الجواب عن هذه المعضلة أو تلك ، فنحن حمير ،وسنظل حميراً حتى نرتقي الرقي الصحيح . . . ذلك الرقي الذي يفعل عنده الفرد البشرى مايراه في صالح المجموعة البشرية ، ويمتنع عن فعل مامن شأنه الأضرار بها ، على أن يكون هذا الفعل أو ذلك الترك والأمتناع ، أكيد . وليس خوفا من عقاب ، أو طمعا في ثواب .

ولكن هل يمكن أن يأتي ذلك اليوم الذي يتخلى فيه الأنسان عن أنانيته . وحب ذاته ، بمحض إرادته ، من أجل المجموعة البشرية جمعاء ؟ وهل سيأتي ذلك اليوم الذي يفكر فيه الانسان على النحو التالي . أنا لاأسرق ، ليس لأني أخاف أن تقطع يدي في هذه الدنيا ، ولالأني أخشى أن أحشر في جهنم يوم القيامة ، ولست أطمع في الذكر الحسن بين الناس ، وأن

اشتهر بالأمانة ، لأني لاأمل لى فى الخلود . . . ولكنى لاأسرق لأن هذه السرقة فيها ضرر للمجموعة وفيها أهدار لمثلها .

إن وجود مثل هذا الشخص بعيد الأحتمال ، فى مجتمع لايجد فيه المرء تكافؤا فى الفرص . . فى مجتمع يأكل فيه القوى الضعيف ، وكأنه مجتمع من الدود . . . فى مجتمع يتمثل فى سلوكه بقول الشاعر « ومن لايظلم الناس يظلم » أو المثل الذى يقول : « إنك أن لم تتغدى به تعشى بك » .

إذن فوجود الأنسان المثالى ، مرتبط بوجود المجتمع المثالى . ولكن وجود المجتمع المثالى مرتبط أيضا بكون افراده مثاليين .

ربما ظن البعض أننا وصلنا الى معضلة أخرى لايرون لها حلا . وربما كانوا سلبيين فتركوا المسألة ، وأسدلوا عليها ستار النسيان . ولكن تناسى المعضلات ، أو تجاهلها لايحلها . والحل عندى هو العدل . . . العدل المطلق الذى لاحدود له . . فكاذب من يقول أنه سيحكم أى مجتمع بشرى بالقوانين وان كثرت . فأن العقول التى خلقت القوانين ، فى مقدورها أن تخلق الوسائل التى تتحايل بها على تلك القوانين . . وكاذب من يقول أنه يمكن التحكم فى سلوك أى مجتمع أنساني بالغيبيات، فأن قبضة هذه الغيبيات أخذت تتراخى فى العصر الحديث ، وما سيتلوه من عصور . أخذت هذه القبضة الفولاذية تتراخى وتسقط من حول رقاب العباد . . ولم يبق لنا من ملجأ . أذا أردنا للبشرية أن تستمر الا العدل العدل المطلق والعدل المطلق يعنى ببساطة أن يؤمن الأنسان بالأنسان .

الشريدان

كانت ليلة من ليالى الصيف المقمرة ، ذات النسيم العليل . حين نسيت ربة البيت باب المطبخ مفتوحا ، وخرجت لشأن من شؤونها . ولم يلبث أن ظهر شبح أخذ يتسلل زاحفا على السطح ، بحرص وحذر . ناصبا اذنيه يصيخ السمع . ويتلفت حذرا متوجسا ، ومتحفزا للفرار عند أى بادرة خطر . ثم يتقدم خطوات ليس لها صوت . وكأن هذه الخطوات خطوات سحابة فى كبد السماء ، أو خطوات ظل ينسحب على الأرض . وكان كلما تقدم خطوة زادت جرأته ، لأنه لم ير أحدا . وأحس بأطمئنان بالغ ، حين تأكد أن البيت خال من سكانه . فوثب الى الأرض ، وأندفع الى المطبخ . وكأنه سهم منطلق الى هدفه .

وجد ميدان المطبخ أمامه خاليا . فأخذ يصول ويجول . ويقلب هذه « الحلة » ويريق مافى تلك . ويلعق هذا « الأدام » قبل أن يأتى على ذلك اللبن . . . ولكنه توقف فجأة . لأن اذنيه التقطتا دبيبا خافتا ، ولاتلتقط مثله الا اذني قط . والتفت بسرعة الى الخلف فرأى قطا آخر ينسل داخلا ليشاركه ماهو فيه من نعيم ورزق وفير . أظلمت الدنيا فى عينى صاحبنا ، وكاد الغضب يذهب بلبه . ورفع يده اليمنى وقد برزت كل مخالبها وهم بصفع الدخيل صفعة تودى بحياته . ولكن يده توقفت وهى فى منتصف الطريق . وكأنها تخشبت . لأن صاحبنا أنتبه فى اللحظة الاخيرة ، أن التى أمامه أنثى وليست ذكراً . . . والأناث حتى فى عالم الحيوان . يعاملون معاملة هينة لينة . وليس من الشهامة أو الفحولة القططية ، أن تخمش أنثى ضعيفة منكسرة . لاتملك من أمرها شيئا غير الآهات والدموع . ولما كان

بطل هذه القصة ، يظن نفسه شهما (وجنتل قطا) لامثيل له ، فقد أنزل يده مسرعا . ونظر اليها نظره تكاد تقطر اسفا وأعتذار . وقال لها بمواء يخرج من حلقه خافتا من شدة الأحراج :

— يؤسفني أيتها العزيزة أن أخفتك وافزعتك بتسرعي .. وابدائي العداوة والتهجم . . لابأس عليك . . تفضلي وتناولى ماتريدين معي ، فأنه يشرفني جدا أن تشاركيني هذه الغنيمة .

نظرت اليه نظرة جانبية أودعت فيها كل ماتملك من أنوثة وأغراء . وكانت لحسن حظها تملك من ذلك الكثير ، قبل أن تندفع داخلة المطبخ وتشاركه فيما هو فيه . . .

وشعر هو بنشاط وحماس . فأخذ يقفز هنا وهنالك محطما كل شئ وكلما وجد شيئا أستطابه ، ناداها لتأخذ نصيبها منه . . .

أما هو فكان قطا أسود ضخم الجثة ، كبير الرأس . قوته كقوة النمر . تدل عليه الشراسة عند أول بادرة غضب . الحياة عنده معارك مستمرة يخرج المرء منها أما غالبا أو مغلوبا . ولاشئ في منتصف الطريق . ولاشئ اسمه التعايش السلمى مع الباقين . إنه يعرف دائما مايريد . وينطلق إلى مايريده انطلاق السهم لايحيد . سبيله الى ذلك أظافره الحادة . وأنيابه التي لاترحم . فأنه لايعترف بالمناقشة الهادئة ، أو المفاوضات . ولاالرجاءات أو التوسلات . . . .

أما هي فكانت بعكس ذلك تماما . قطة ذات لونين أختلطا وتمازجا . وتقاسما جلدها بالعدل والقسطاس . حتى يصعب أن تصفها بأنها قطة صفراء ذات بقع بيضاء . أو قطة بيضاء ذات بقع صفراء ، وطبعها لين منكسر . طريقة حياتها الوحيدة هي الهروب والفرار ، عند أول بادرة خطر .

لاتعترف بالهجوم ولو مرة واحدة . ولاتقره . وانما هى دائما الفارة الحاربة . ولذلك تراها نحيلة عجفاء ، شأن من لايجد كفايته من الطعام الانادرا . وذلك لايكون الاحين يخلو لها الجو من القطط الأخريات . لأنها أضعف من أن تناضل ضدهن لتنال نصيبها . حين تخلو الى نفسها لاهم لها الا أن تستلقى على أحد جانبيها ، ويروح عقلها يسبح فى أحلام وأوهام لذيذة . تتخيل فيها نفسها تعيش فى مجتمع قططى عادل . الطعام فيه متوفر للجميع ، وكذلك الدفء ، وتتخيل أن من معها من القطط خلقوا دون أنياب ، وبلا مخالب . فلا خلاف بين الافراد ولاخصام بين الجماعات . ولامعارك دامية مهلكة . ولكنها لاتتحرك من مرقدها الحالم لتفعل شيئا نحو تحقيق هذا المجتمع وأنما تظل راقدة تحلم أحلام اليقظة حتى يطويها النوم بين جناحيه . فتتابع أحلام يقظتها فى أحلام منامها . وهكذا كانت تنقضى أيامها فى احلام وأوهام . ولاشئ غير هذه الأحلام والأوهام .

أخذا يصولان ويجولان فى المطبخ حتى أتيا على كل ما أستطاعا أن ينالاه . وكانت معدتاهما قد أكتظتا بما حملا من طعام . فخرجا من المطبخ يتلصصان ثقيلى الخطوات من الشبع . ولكن صاحبنا لمح أرنبا صغيرا يقفز ويجرى هنا وهناك . لاهيا عن كل شئ ، سعيدا بكل . ولما كان صاحبنا يعلم أن أمامه سهرة طويلة مع صاحبته الجديدة ، فقد رأى أن يعد لهذه السهرة عدتها ، ويتخذ لها زادها . فهجم على الأرنب ، الذى حاول أن يقفز مبتعدا ، وقد ملك الذعر عليه أقطار نفسه . ولكن كف القط كانت أسرع منه . فلطمته على وجهه . وأنغرست مخالبه فيه . فراح الأرنب فى غيبوبة طويلة . فحمله القط بين اسنانه ولحق بصديقته ، التى كانت قد سبقته على سطح المنزل . ووقفت تنتظره . وهى تتأمل القمر ، وتلك

الغلالة الفضية الرقيقة التى كسا بها كل شئ . وراحت تتنهد من أعماقها مأخوذة بهذا الجمال . وأنطلق خيالها فى أودية الأحلام كالعادة . . وضع القط الأرنب بجانبها ، ورفع ذراعه يريد أن يحتوى صديقته ، ويضمها الى صدره . لولا أنه لاحظ حركة ضعيفة تدب فى الأرنب . فعاد اليه . وظل يصفعه على رأسه ، حتى سكنت فيه الحركة تماما . فتنهد بأرتياح وعاد الى مغازلة حبيبته وضمها بشوق ولوعة . وراحا يتناجيان ويقص كل منهما قصته على الآخر . ويفضى له بذات نفسه . وقد احتضن كل منهما الآخر . وبدأت هى فقالت :

— اننى لم أولد فى بيت ما . ولا أعرف طعم الحياة التى يعيشها أولئك الذين يسكنون البيوت ، ويلقون بكل مسئوليات حياتهم على أعناق غيرهم وكل الذى أعرفه أن مثل هذه الحياة لابد وأن تكون لذيذة . وأن بنى جنسنا الذين أسعدهم الحظ بسكنى البيوت ، لايشكون من حر ولابرد . ولا يعرفون مرارة الجوع والحرمان . ولايتكبدون مشقة البحث عن الرزق . أما انا فمتشردة من اليوم الذى ولدتنى فيه أم متشردة بدورها . إن كل ماأذكره من حياتي فى تلك الأيام كومة كبيرة من القصب الجاف ، كنت أناوأخواتي نسكن أعماقه المظلمة . وبين الحين والآخر تهل علينا أمنا تحمل بين أسنانها ما أستطاعت أن تحصل عليه من طعام قليل . فنلتهمه التهاما . ثم تستلقى هى على ظهرها لتمكننا من أثدائها ، فننهال عليها رضعا ومصا حتى نشبع . ونأخذ فى اللعب والمرح . فتنظر الينا نظرة حزينة . ولكنها راضية ، قبل أن تستودعنا الله ثم تخرج ثانية لتبحث لنا عن مزيد من الرزق

وسهمت ببصرها نحو السماء وأستطردت تقول :

— نعم أني أذكرها . . . اذكر تلك الأم الشاحبة العجفاء . والتى كانت

تشبهني الى حد كبير . أذكرها وأذكر ضلوعها البارزة وعينيها الغائرتين ، وذلك الظلع الخفيف الذى لم يكن يظهر الاحين تسرع فى المشى . ولم تزد أمى على أن تنهدت وقالت عنه ، حين سألتها ، أنه أصابه قديمة . وكنت أشعر أيامها أن وراء هذا الظلع حادثاً أليما ومأساة موجعة ، ترى أمنا اعفاءنا من ذكرها رحمة بنا . . . كم أذكر تلك الأيام ، وأنا وأخواتي نزدرد ما أحضرته لنا من طعام . وكم مرة غص حلقى باللقمة لعلمى أن امى فى حاجة ماسة لما تحضره لنا من طعام . وأنها نفسها نادرا ماتجد ماتملأ به معدتها الخاوية . . . .

فسألها بصوت أجش من التأثر :

– ولكن أين أمك الآن ؟

فقالت بحزن وآسى :

– ليتنى أدرى . . . لقد خرجت ذات يوم ولم تعد . وأنتظرنا يومين كاملين دون جدوى . وأخيرا أضطرنا الجوع الممض للخروج أنا واخواتي . ومنذ ذلك اليوم الذى خرجنا فيه ، تفرقت بنا السبل ، ولم نلتق أبدا . ومن يدرينى كم منهم عاش وأستطاع أن يقاوم المصائب ، وكم منهم مات جوعا وسغبا . . .

وغلبتها العبرات فصمتت . وأخذ هو يربت على ظهرها مواسيا حتى ذهب عنها بعض الحزن فأنشأ يقول . .

– إن سر شقاءك وعذابك أنك تنظرين الى حياة الحرية والانطلاق . على أنها حياة تشرد ومهانة . وتحلمين بأن يتحمل عنك الغير مسئوليات أطعامك وحمايتك ، دون أن تضعى فى الأعتبار الثمن الباهظ الذى ستدفعينه مقابل ذلك .

أعجبني اذن . وأندهشي ماشئت . حين أقول لك أنني كنت واحدا من الذين تتخيلين أنهم سعداء ، وأنهم مرفهين . فقد نشأت في بيت عز ونعمة . ولم أكن أعرف شيئا أسمه الجوع . فقد وعيت على أم سمينة مربربة ناعمة الملمس ، طيبة هادئة ، قليلة الحركة ، كثيرة النوم . ترى السعادة تنحصر في أكلة شهية وحشية ناعمة وثيره تستلقي عليها . وليكن بعد ذلك مايكون . ومنذ نعومة أظفاري أخذت هذه الأم تعلمني آداب الحياة والسلوك في المجتمعات الراقية . وأخذت تحاول مااستطاعت أن تقتلع بذرة الخطيئة التي كانت تقول أننا جميعا ورثناها عن أجدادنا سكان الغاب . قبل أن يتعلم الجد العاقل أن يعيش في دفء وأمان مع الأنسان . وفي بيته . وكادت أمي تنجح في أحالتي لقط هادئ ناعم مدلل . يرى في الأنسان منقذاً يستحق الطاعة والعرفان بالجميل . أقول كادت تنجح في ذلك . ولونجحت لما كنت هنا الآن على هذا السطح القاسي . ولكنت أنام ملء جفوني على حشية طرية ناعمة الملمس . ولكن الظروف أرادت لي غير ماتريد هذه الأم المسكينة المخدوعة . . .

كانت النقطة التي تحولت عندها حياتي ، وتغير مجرى مستقبلي . تلك الليلة التي قابلت فيها أستاذي . . . قط مهيب الطلعة ، قوي الشخصية ، مقنع المنطق . حين يتحدث اليك تنطلق من عينيه اشعاعات النور والثورة . فتشعل في قلبك ناراً عنيفة لاتخمد . وتزلزل كل ذرة فيك . فتتغير المناظر أمام عينيك . وإذا الحقائق مجردة ، بعد أن يكون قد مزق ما أهالوه عليها من اثواب الخداع . وإذا الأبيض أبيض ، والأسود أسود . وإذا بذلك الجد العاقل الذي كثيراً ماكانت تتحدث عنه أمي بتبجيل واحترام . يظهر على حقيقته كقط مخدوع ، سلم نفسه ونسله ومن جاء بعده . الى عبودية كريهة

بجثثهم على قمم الجبال . حتى تأكل الأرواح وتشبع ، وتهدأ ، ولاتلحق بهم ضرراً ولا أذى . بل تذكرت نفسى وأنا صغير العب مع لداتي فى ضوء القمر وفجأة يخفت هذا الضوء الفضى الجميل، ويزحف الظلام الأسود على كل شئ . فأهرع الى أهلى أحتمى بهم . فأجدهم ممسكين بصفائح فارغة يقرعونها وهم يصيحون صيحات عالية ، وقد اتجهوا بانظارهم الى وجه القمر المخنوق ليخيفوا ذلك الوحش الهائل الذى كاد أن يقتل القمر خنقاويلتهمه . وأجد نفسى أفعل مايفعلون . وأصيح بأعلى صوتي ظنا منى بأن ذلك الوحش سيسمعنى وسوف يخاف ويختفى . بينما هرع الرجال العقلاء الى الجامع يصلون صلاة الخسوف ويبتهلون الى الله أن يزيح هذا الكرب الكبير .

ورويدا رويدا تبدأ جحافل الظلام فى التقهقر . وتعود السيادة للنور . وتنزاح عن وجه القمر هذه الدائرة المظلمة السوداء ، التى حجبت ضؤه . وتنزاح مع الظلمة طبقات الذعر . والخوف ، والهلع ، التى خيمت على الصدور . وتعود البسمة الى الشفاه . ويعود الأطفال الى اللعب والمرح .

ولاعجب . . . .

إن السماء استجابت لدعوات الرجال وابتهالاتهم . وكشف الله عنهم الغمة .

ولاعجب فقد اخافت صيحات النساء والأطفال ذلك الوحش الرهيب وجعلته يرفع يده الآثمة عن القمر ، ويختفى .

هل يعلم هؤلاء أن ذلك الظلام الأسود لم يكن الاظل أرضهم لوث وجه القمر ! .

انها فيك حين تتعلم أن لاتعتمد الاعلى نفسك . إنها فى هذه المخالب التموية التى يجب أن تنشبها فى صدر من يقف فى طريقك ، ويحاول أن يستعبدك . أنها فى هذه الأنياب التى يجب أن تنغرس فى قلوب المخادعين والظالمين . .

واحسست القطة برجفة ورعدة تنتظم جسمها حين أخذ يبرز لها القط الأسود مخالبه وأنيابه ، وأخذ الشرر يتطاير من عينيه . وحين رأت جسمه كله ينتفض من التأثر والثورة وهو يستعيد كلام معلمه وأستاذه . . ولكن القط الأسود كان قد نسي وجودها وراح يزمجر فى انفعال. وأستطرد يقول :

ـ صرت بعدها لاأطلب ما أريد ، بل آخذه ، وانقض عليه . غير مبال بنظرات أمى الزاجرة ، ولاصرخات السيد المزمجرة . بل أني أخذت انقل ما أسمع من أستاذى الى باقى اخوتي واحاول أن اشعل فيهم نار الثورة . . . وكم حاولت أمى أن توقفنى عند الحدود التى تراها ، ولكن متى كان للسيل الجارف حدودا يقف عندها أو يعترف بها . . .

ومازال هذا دأبي حتى شعرت أن الجميع قد ضاقوا بي ذرعا . . إني اعترف أنني في بعض الاحيان كنت أتأثر واتألم لدموع أمى وتوسلاتها . كنت أهتز حين تعدد لى النعيم والامتيازات التي سأفقدها بثورتي على السيد . وحين كانت تصف لى البؤس والشقاء الذى سيتعين على أن اواجههما حين اخرج عن طاعته . . . حاولت تلك الايام أن اكبح جماح نفسى وأغير طريقتي ومنهجى فى الحياة . كنت أقول لنفسى فى لحظات الضعف تلك . أني نفرد أن يغير جرى التيار ويمحو ماحفره التاريخ الطويل . . ! ؟ ولكنى كنت أشعر دائما أن هناك شيئا خفيا أقوى منى . ولااطيق منه فكاكا . يدفعني لفعل كل شئ تنهاني عنه أمى . . لم اكن مثلا أحتمل مطلقا أن يوقظنى أحد أطفال السيد من نومى بأن يرفسنى بقدمه ، أو يرفعنى من اذني ، أو

يقرص طرف ذيلى . ورغم محاولة أمى افهامى أن هذه المضايقات تعتبر فى عرف السادة مداعبات ، وعلامات للود والمحبة ، ويتحتم علينا نحن القطط أن نعتبرها كذلك . رغم كل محاولاتها فاننى لم اكن املك نفسى من خدش أو عض كل من تسول له نفسه مضايقتى .

وكانت القشة التى قصمت ظهر البعير ، يوم أن عزمت على زيارة بيت الدجاج كان مقاما فى أحد الاركان من سطح المنزل . وكم كانت دهشتى وعجبى حين رأيت لأول مرة دجاجة يتبعها رهط من صغارها ، لأصواتها صليل الأجراس الذهبية . وقفت برهة أتأملهم وأعجب لأمهم حين تجد حبة ، فأذا بها تناديهم جميعا فيخفون مسرعين اليها ، وتكون الحبة من نصيب أسرعهم فى العدو وأكثرهم يقظة وانتباها لهذا النداء .

شعرت وأنا أتأملهم برغبة عنيفة لاتقاوم فى أن أكون بصحبتهم . وألعب معهم . وتاقت نفسى للمسهم ومداعبتهم . وأخذت افكر . . ترى ماذا يكون شعور هؤلاء الأصدقاء حين يجدوني فجأة وسطهم ، وهل ياترى سيرحبون بي أم سيظهرون لى العداوة والبغضاء . . . ؟

أخذت الف وأدور حول القفص علنى أجد فرجة أنفذ منها ، حتى وجدتها . فرجة صغيرة تتسع بالكاد لمرور رأسى . وهذا كما تعلمين فيه الكفاية لأى قط ، فأن العضو الوحيد الذى لايستطيع التحكم فى حجمه هو رأسه . . . .

ودخلت . . وكم افزعنى وساءني ذلك الأستقبال العدائي العنيف الذى قابلوني به . أخذت الدجاجة تقوقئ قوقآت مجنونة ، وكأن بها مس من الجنون ، أو فقدت عقلها . وانضوى الصغار تحت جناحيها يحتمون بها .

وتأهبت هي للقتال محاولة أن تنال عيني . . . أما القفص المجاور والذى به عدد كبير من الدجاج والديوك فقد انقلب الى مظاهرة صخب وجلبة عظيمة وأخذت الطيور تتواثب وهي تصيح بأعلى أصواتها . وذهلت أنا ، وتسمرت لحظة في مكاني لا أدرى ما افعل ، ثم وجدت أن لامناص أمام هذه الجلبة والصياح من الهرب . .

وحسنا فعلت . إذ ماكدت أخرج من القفص وأنزوى تحت صندوق قديم ، حتى ظهرت السيدة وبيدها عصا غليظة ، تريد أن تعلم ما لذى ازعج دجاجها . أما أنا فظللت في مكاني لاأتحرك ، ولا أكاد أتنفس . حتى عادت السيدة ادراجها . فخرجت محاذرا . وأردت أن أتبعها الى داخل المنزل . ولكني وجدت أرجلي لاتطاوعني ، ولاتريد أن تتحرك .

يا الهي ! لقد كان يومها لتلك الكتاكيت سحرا لايقاوم . . ترى ما ملمسها ؟ وهل هي ناعمة الملمس كما يبدو من منظرها ؟ وهل تستطيع أن تقفز بخفة وسهولة كما أفعل ؟ ولماذا ياترى لايريدون أن يقبلوني صديقا في مجتمعهم ، وانا لاأحمل لهم الاكل خير ومحبة ؟ .

ووجدتني أعود الى القفص رغم أرادتي ، وأدخل . ولم أهتم كثيرا هذه المرة للضجة التي صحبت دخولي . أنني صديق ومخلص . وسأثبت لهم اني صديق ومخلص . وأخذت أستعرض مقدرتي على القفز هنا وهناك . وأستلقى على ظهرى . وأتدحرج ذات اليمين وذات اليسار . وكل ذلك لأثبت لهم حسن نيتي . . . ولكن هذه الطيور القذرة الجاهلة لم تكف عن صياحها الذى يصم الآذان . . .

وأخذت أتساءل هل حان الوقت لتنفيذ وصية أستاذى ؟ وهل ألقى بنفسى فى هذه الدنيا العريضة ، أجوب طرقاتها والتقط رزقى حيثما وجد ، وأكافح ، وأعتمد على نفسى ؟ هل ألقى بهذه الحياة المريحة المرفهة جانبا ، وأنطلق كأستاذى داعية ومحرضا على الثورة والحرية ؟ وأخذت أتساءل ما الذى سيحدث لى ؟ هل أموت من الجوع اذا تركت دار السيد ؟ لا أظن ! فأنه من النادر أن يموت شخص قادر من الجوع . وحتى الموت هو أحسن لدى من حياة العبودية ، تلك الحياة التى تشعر فيها أن كل لقمة تأكلها يجب أن تعطى مقابلها مداعبات وحركات تسر السادة . وأن تتحمل فى سبيل تلك اللقمة اللعينة والركلات والصفعات . وأنت ممنوع من ابداء أى تذمر أو سخط ، أو حتى مجرد الأحتجاج . وانما عليك أن تتذلل وتستكين .

كانت خواطرى تدور على هذا المنوال . ولكن أقدامى كانت تحملنى دون أن أدرى فى أتجاه المنزل . ربما كان هاتف الحب للأوطان والمنشأ ، أو الشوق الى أمى وأخوتي ، أو الجوع الممض الذى كان ينهش أحشائي ، وقتئذ ، أو ربما كانت هذه الأسباب مجتمعة هى التى دفعتنى الى الدخول فى ذلك البيت ثانية .

حين تسللت داخلا ونظرت الى الوجوه وجدتها مكفهرة متغيرة . ووجدت فى العيون نظرات الحقد والكراهية والاحتقار . حتى أمى ! شعرت أنها تتجاهلنى وتمضى فى اللعب مع أولادها وبناتها الباقين ، دون أن تلتفت الى ، أو تعيرني أدني اهتمام . وبحثت عن طعامى فلم أجده . ودفعنى الجوع الى البحث بدقة أكثر . وأخيرا وجدت صحنى وبه قليل من طعام داخل حجرة مغلقة النوافذ . وماكدت الج الحجرة بعد تردد قصير ، لان الخيانة لم تكن قد خطرت لى على بال وقتذاك ، حتى أغلق الباب . ووجدت نفسى وجها لوجه أمام السيد وهو يحمل هراوة غليظة بيمناه . وسرعان ما أخذ يطاردني ويهاجمنى بها يريد قتلى . وأنا افر منه ، والوذ بهذا الركن تارة

وأندس خلف احد المقاعد تارة أخرى . وفى كل مرة تهبط الهراوة فيها أنجو من الموت المحقق بأعجوبة . حتى أصابني فى مؤخرة ظهرى وكسر لى عقب الذنب ، الذى ترين مكانه معوجا حتى اليوم . وهنا كان الضيق والحنق قد ملكا على أقطار نفسى ، وتردد صوت أستاذى فى رأسى مدويا وهو يصيح — أين مخالبك ؟ ؟ أين انيابك ؟ ؟ بل أين شجاعتك وبسالتك ؟ ؟ أثبت ودافع عن نفسك . . . .

وبغتة أبدلت خطتى من المراوغة والفرار ، الى الهجوم . فثبت مكاني ونفشت شعرى ، وكشرت عن أنيابي ، ورحت أهدر مهددا متوعدا منذرا . وأنكمشت على نفسى متأهبا للوثوب على وجه الرجل ، وغرس مخالبى الحادة في وجهه وعينيه . .

لعلك تضحكين حين تعلمين كم كانت ناجحة هذه الخطة . فاذا بهذا الرجل الرهيب ، بل هذا الاله الصغير ، وهذا الطود الشامخ . يتضاءل وينكمش على نفسه ذعراً وخوفا . واذا به يرتجف من الرعب . ويغطى وجهه بكفيه يحميهما من مخالبى ، وانا لم اتحرك نحوه بعد . هذا الرجل الذى كان يرهبه الجميع ولايكاد يخطو داخل المنزل حتى ينزوى كل منهم فى ركن . وتخفت حركته . أذا بهذا المرهوب يتقهقر بظهره الى الباب . ويفتحه بيد مضطربة راعشة ، وينفلت منه هاربا بسرعة البرق ، تاركا الباب مفتوحا . فأنطلق منه أنطلاق السهم الى الدنيا الواسعة .

انطلقت من ذلك البيت بمعدة خاوية وذنب مكسور ، ولكن بروح جديدة ، وقلب مفعم بالأمل والأيمان . . . من كان يظن يوما أننى أخيف السيد . . ؟ واكتشفت يومها أن هذه العقبات التى نظن تخطيها مستحيلا ليس لها وجود فى الحقيقة . وأنما هى جبال من ضباب ، تخلقها مخيلاتنا ونفوسنا المريضة . وأن هذه المخاوف ، لاتحتاج الاللأقتراب منها بثقة وشجاعة وايمان ، فاذا هى أمامك هباء منثورا . أن هذا التمثال الرهيب لم يأخذ اكثر

من تكشيره ، ومن هدير غاضب ، حتى تكشف لى عن رخاوة وجبن مابعدهما رخاوة وجبن . وأخذت نظرتي الجديدة الى الأشياء تتبلور . وآمنت أن المشاكل مهما صعبت واستعصت ، وأن كل المخاوف مهما عظمت ، حين تواجهها ، أما عن قوة فى ارادة أو أن الضرورة هى التى الجأتك لمواجهتها ، اذا بكل هذه المصاعب والمشاكل تتكشف لك عن أهرامات من الأوهام . خلقها ترددك وجبنك . وأن هذه المخاوف لاتستحق أن تكون مخاوف . وأنه ليس هناك مشكلة وليس لها حل .

بهذه الروح الجديدة الجريئه خرجت من بيت السيد وواجهت حياة الأستقلال والحرية بما فيهما من مسئوليات .

الفهرس

رقم الايداع ٩٩/١٠٨